روايات الهلال

حكايات المدينة السرية

منال القاضى

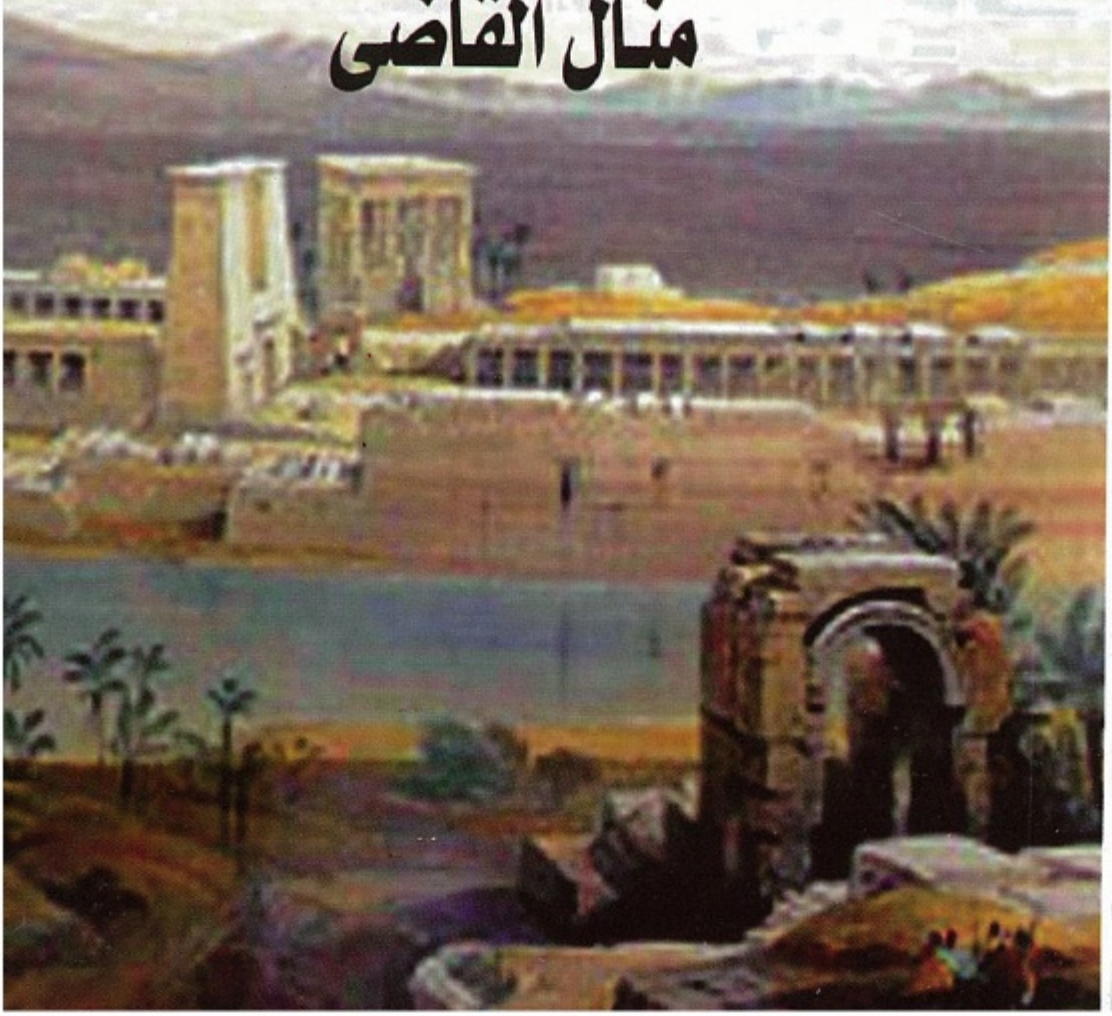

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

حكايات المدينة السرية

منال القاضى

دار الهلال

رقم الإيداع : ٢٠١٢/٨٤٤٢م

الترقيم الدولى I . S . B . N: X 977-07-1536-0

الجزء الأول

الواحة

(١)

كان أهل الواحة يعرفونه، تربى طفلاً بينهم، قبل أن يسافر إلى القاهرة، ويتعلم كيف يقرأ النقوش المكتوبة فوق الجدران. كان سخياً معهم كلما دلوه على أثر جديد.

يهرولون إلى خيمته الزهرية التى ينصبها أسفل الجبل. ليقولوا فى حماس بلغة أهل الواحة:

«بروفيسير فهد، كشف جديد».

يضحك فى سره.

«ليتهم يصدقون.. إنهم يحبون نقوده ولا يدلونه إلا على القليل، ولكنه قال كالعادة سآتى معكم فى الحال». وتصنع الاهتمام:

«أين»؟

ليشيروا إلى نقطة فى قمة الجبل، يتأكد أنهم يضيعون وقته، ولكنه بحاجة إليهم ويجب أن يتظاهر بتصديقهم، من أجل بعض القطع الأثرية الحقيقية التى يدلونه عليها من آن لآخر.

قبل مجيئهم كان يدور حول أحد التماثيل الصغيرة، التى بعثها إليه صديق نمساوى، ينافسه فى حب الماضى والنبش فى أسرار الحضارات القديمة، كان لامرأة بدينة لها وجه ملثم وردفان ممتلئان بلا أقدام أسماها «فينوس ما قبل الزمان».

يدور فهد حولها مرات «هل حقاً هى فينوس».

اقتلعوه من أفكاره وهمسوا فى أذنيه كما فعلوا من قبل مرات، وتبعهم كالعادة.

اقتربوا من الكهف، فشعر بقوة خفية تجذبه إلى الداخل. «إنه أمام كشف حقيقى».

ابتلعه الكهف فى لحظات. وعرف منذ أن وقعت عيناه على الرسوم المبهرة على جدرانه، أنه أمام لحظة نادرة غيرته. لن يعود أبداً كما كان.

حاول الكلام، ولكن الكلمات تساقطت. ثم شعر بهزة عنيفة وتوقف الزمن «ما الذى حدث»؟

لا يدرى. كان يسقط فوق وسائد معتمة.

لحظات واخترق الظلمة صوت يدندن بأغنية جديدة، لم يسمع مثلها من قبل.

سأله الصوت «من أنت»؟

أجاب «فهد».

الأغنية تقول هل تريد أن تظل فهداً، فلتختر الاسم الذى تريد، أنت فى مملكة الحرية أخيراً.

أصوات أخرى حادة وشرسة تصله أحياناً من العالم الذى تركه تؤكد أنه فى غيبوبة، ونهاية الممر لا تخفى سوى الموت. هل هذا حقيقى، هل أنا فى طريقى إلى الموت أيتها الروح التى تغنى الأغنية.

كان جسده ضئيلاً، وقامته قصيرة جداً، كان الأطفال ينادونه بالقزم. أما الكبار فتعبر نظراتهم عما يقوله الأطفال ولكنهم لا يقولونه خجلاً، أو خوفاً. كان وجوده خرقاً لقوانين الطبيعة.

حين يمشى بينهم كانوا يتهامسون من حوله «احترسوا».

لن يسكت لأنه قزم، لابد أن يفكر فى انتقام ما، ويضمر شراً، وخبثاً ودهاء.

هل سيكون قزماً فى العالم الجديد؟ التساؤلات لا تنتهى والأغنية تقول دائماً «لا تقلق، أخبرنى بقصتك».

يقول:

«من أين أبدأ وأنا فى هذه الحال، وأنا لا أعرف ما الذى حدث»؟

لا يهم، كانت الذكريات تنساب فى رأسه رغماً عنه.

(٢)

يترك هذه الواحة ليعود إليها من جديد، تسكنه أشجار النخيل، ومياه

الينابيع ووجوه طفولته.

ليست المكان الأول فى حياته، كان يسكن نقطة أسقطتها الخرائط، مهجورة ومقفرة، لا يزيد سكانها على مائة وعشرين فرداً.

سار ليلتين ويوماً هو وجده، بعد أن قرر الجد الهجرة إلى الواحة الكبيرة، عند وصولهما كانا منهكين من الجوع والعطش، أعطوهما خبزاً وماء. وشك وريبة وصمت، أما طيبتهم فلم يلحظها إلا بعد أمد.

أشياء مازالت تربطه بالمكان القديم.

«مثل ماذا».

يجيب:

«النجوم».

كم تمدد فى الفضاء، حيث ولد ليعد النجوم.

يبكى:

«ألن نعود أبداً»؟

يضمه جده:

«ما هو أكثر شىء أحببته هناك، النجوم أليس كذلك».

يشير إلى السماء:

«انظر نجومك لم تتركك، لقد تبعتك، أما أنا فقد تركت حياتى كلها، من أجلك».

يجادله «ولكن أهل الواحة الجديدة ياجدى...».

يقاطعه الجد:

«لا يهم عداوتهم ستذوب مع الوقت، المهم أننا نجونا».

مكانهم القديم ملعون، لن يزيد سكانه على مائة وعشرين. عند كل ميلاد هناك مأتم يقام.

يضمه ويحكى:

«طفل سيولد فى الأيام المقبلة، يتكتمون أمره، أمه عنيدة ولا تريد أحداً

أن يغادر المكان، تريد أن نتصدى للعنة تظن أن كل المآتم التى أقيمت فى السابق ما هى إلا مصادفات، يقولون إنها تحدثت ذات يوم إلى أحد التجار الذى نزل فى ضيافة أبيها، فأخبرها بهذا الكلام العجيب، أحبته وأرادت أن تتبعه، ولكن أباها زوجها بمن يريد، والآن ستنجب، يهمسون تريد أن تنتقم من أبيها فتحل اللعنة عليه ويموت، خفت، خشيت أن يكون ميلاد ابنها سبب موتى. قررت الرحيل، كى لا يتجاوز العدد الحد، وينجو الجميع، أنا لا أخشى الموت ولكن»..

أضاف فى نبره قاسية:

«لقد مات أبوك بسبب اللعنة، أقيم مأتمه عشية ميلاد برهوم، لن أتركك».

منذ عرف فهد بأمر اللعنة والأشباح تطارده، كل منها يدعى أحقيته بمصاحبته، لأن ميلاده سلبه الحياة.

يشعر بروحه تغادره وتحوم معهم فى أماكن غامضة. تحدثه وتهمس إليه وتناديه.

يوم بلوغه التاسعة. كان جده يغط فى النوم، أما هو فانسل إلى الخارج باحثاً عن نجومه.

اقتربت منه امرأة تخفى وجهها بخمار، رفعت ذراعيها فشخللت أساورها الكثيرة.

نظر إليها مبهوتاً غير مصدق:

«لقد كنت داخل رأسى، كيف خرجت».

أشارت إليه:

«تعال، سأخبرك بمصيرك».

تبعها منوماً، اتسعت خطواتها كغزال، ألقت بخمارها وبدأت تقفز كأنها تريد اجتياز حواجز غير مرئية. التفتت إليه فرأى وجهها الشبيه بالشمس، قالت:

«هيا».

تبعها بين صخور ظهرت ورذاذ ماء تفجر تحت قدميها.

أحس بالتعب وسرى خدر فى جسده الضئيل وشعر أنه لا يستطيع مواصلة الجرى إلى ما لا نهاية، حتى لو كان سيصل إلى العالم المسحور.

همس:

«توقفى».

واصلت القفز وتوسلت إليه أن يواصل ويتبعها، ليكتشف قدره.

تصيح بين آن وآخر:

«هيا أسرع».

يسأل:

«إلى متى».

تحدق نحو الأفق ولا تجيب.

ثم قالت:

«توقف إن كنت تستطيع».

استجمع قوته وعناده وقال فى إصرار:

«سأتوقف».

ولكنه لم يتمكن كانت ساقاه تواصلان القفز والجرى.

وحين أوشكت الشمس على المغيب، توقفت المرأة وفردت ذراعها مشيرة إلى شىء ما.

اقتربت فى خشوع من كتلة حجرية، لحق بها، تمتمت:

«نقش مقدس.. هل ترى»؟

تسلل النقش إلى رأسه وتحول إلى ألوان ونغمات وضحكات من الجنة.

هزت كتفيها:

«لابد أن تتعلم أكثر كى تعرف».

استوقفه رسم رجل قصير وقال:

«هذا أنا».

«نعم أنت».

هز رأسه فى حيرة.

قالت فى دلال حورية:

«أحب النقوش المقدسة فهل تحبها».

شعر بالحيرة أكثر. أغمضت عينيها فساد الظلام، بكى وشعر أن دموعه ساخنة.

سمع صوتها يبتعد:

«من الأفضل أن تحبها لأنها قدرك».

يسأل فتجيب «مت يوم ميلادك، ستنقب طوال حياتك فى حكايات الأموات وقد تعرف حكايتى، وقد تبدلها إن لم تعجبك، ومن يدرى فقد تجعل منى أسطورة».

تحققت النبوءة بعد سنوات، صارت النقوش قدره، قرأ آلاف الحكايات فوق جدران المعابد، أمسك البرديات طوال حياته، كان يفتش فى كل وجه عنها.

ولكن ما الذى حدث بعد دخوله الكهف.

كان يشعر بألم فى رأسه، أراد أن يفتح عينيه ولم يتمكن.

لا يستطيع الحركة، هناك من يحمله، أراد أن يصرخ:

«من أنتم؟ إلى أين تأخذونى».

ولم يستطع.

(٣)

أهل الواحة حذرون ولا يأمنون إلى الغرباء. يخفون حكاياتهم وأساطيرهم، ويبتسمون فى سرية لأسباب لا يعرفها سواهم.

حاول جده كثيراً أن يكسر تلك الجدران، كان يجيد لغتهم، واكتسب خبرة كبيرة بالبشر، فى المرة التى سافر فيها إلى الحج.

يهمس:

«لا يهم كثرة السفر كى تفهم الناس، لقد اختلطت فى رحلتى إلى الحج بكافة صنوف البشر، وأدركت أننا سواء.

أهـل الواحـة مثلنا، يريدون الحب والطمأنينة حتى لو ادعوا غير ذلك».

ورغم دأب العجوز ظلت أبواب قلوبهم مغلقة.

لم يكن فـهد يشعر بالوحدة فى ذلك الوقت، كانت تصحبه خيالاته دائماً، وينسل إلى أطلال المدينة القديمة، يدق الجدران المهدمة بأصابعه الصغيرة، وأحياناً يلتقط أشياء من هنا أو هناك، اعتبرها كنوزاً وأسراراً. أعظم كنوزه كانت ناياً قديماً وجده فى أسفل جدار، داخل صندوق من خشب الصندل، نقشت عليه كتابات كثيرة مثل تعاويذ سحرية.

أخرج الناى فى حذر.

كيف يبدأ، لحظات وانطلقت نغمات شجية، كان الناى يأخذ من روحه. يشعر عقب كل لحن بإجهاد شديد، ويقرر التوقف، فلا يستطيع.

تجاوزت النغمات الأطلال وسمعها أهل الواحة. كان جده منشغلاً بإقامة حوارات مع الشيوخ، ومشاكسة الشباب الذين يعملون فى حدائق النخيل، لعلهم يحكون عن ماضيهم.

ولكنهم تركوه والتفتوا مذهولين:

«من أين تأتى الموسيقى»؟

ولم يجرؤ أحدهم على الاقتراب من الأطلال، فالنغمات التى سمعوها لا تبدو بشرية، وأكد عجائز الواحة أنها عمل شياطين.

كف جـده عن الكلام منذ ذلك الوقت وبدأ أهل الواحـة يحكون. وكـان العجوز يستمع فى دهشة، لقد فجر العزف الغامض طوفاناً من الأغانى والقصص.

لم يكن فهد يتصور أن ألحانه لها أثر السحر.

قال له جده ذات يوم:

«هل سمعت يابنى النغمات القادمة من الأطلال، لا تذهب هناك الشياطين تعزف لتسلى الموتى وتخبل الأحياء».

اقترب فهد منه وقال:

«بل أنا من يعزف».

أمسكه جده وضحك:

«أعرف أنك شيطان صغير، هيا اطربنى بعزفك ياشيطانى».

اختفى فهد لحظات وعاد ومعه الناى نفخ قليلاً ثم قال حائراً والعرق ينساب على جبينه:

«لا أستطيع العزف هنا، لابد أن أتسلق شيئاً مرتفعاً، وأرى الواحة، والتلال وأشجار النخيل وأنظر إلى الصخرة التى يعلوها المعبد».

بهت الجد وأمسك بالناى، بدت له الكتابات الدقيقة على جانبيه كخربشات. ميز كلمتين كتبتا بلغة لا يذكر اسمها «الموت» و«الحياة». لم يكن يعرف سوى هاتين الكلمتين. تعلمهما قراءة وكتابة من رجل كان منكباً على كتاب بالقرب من مكة.

نظر إلى حفيده وقال بريبة:

«سآتى معك».

اتجها صوب الأطلال.

عزف فهد وكان الجد يتمتم كأنه يحاول الفهم «الموت» «الحياة».

عند عودتهما إلى الخيمة، اتكأ عليه جده، شعر بجسد العجوز يرتعد رغم الحر:

«لا تخبر أحداً بأمر الناى».

(٤)

العجائز دائماً قلقون، يتمسكون كثيراً بكلمة «لا».

لا تفعل، لا تقل، لا تتكلم، لا تخبر.

هل كان جده يلتزم فى صباه بكل تلك اللاءات.

لقد خرق فهد أوامر جده سريعاً فور لقائه بالرحالة والأثرى أشرف عزام عند بوابة المدينة القديمة. شعر منذ الوهلة الأولى أنه يلتقى بمستقبله. ودون كلمة اصطحبه فهد أعلى تلة.

وقبل أن يلتقط أنفاسه، أعطاه الناى، وانهال عليه فهد بالأسئلة:

«هل حقاً كتبت كلمتا الموت والحياة».

«هل تعرف القراءة والكتابة».

«هل تعلمنى»؟

ثم قال كأنه يطالب بحق مشروع، كأنه كان ينتظر قدوم أشرف منذ الأزل:

«لابد أن تعلمنى».

كان أشرف يشبه الوتد بجسده النحيل ونبراته الحادة. وكان فهد بحاجة شديدة إلى وتد يشده إلى الأرض.

حين أمسك بكف أشرف، أحس بقوة جديدة دخلت حياته، لتساعده على الوقوف.

اصطحبه فى جولات بين الأطلال، لم تكن الأحجار والجدران المهدمة تبعث فى نفس أشرف الأسى.

كان ينحنى بحرص، يلتقط أشياء من هنا وهناك، قطع فخار مكسور، قرطاً صغيراً، جعران. ويفتش عن رسوم فوق الجدران. يتأملها فى صمت، ويتابعه فهد فى شغف، فهى بداية حكاية جديدة.

كان يطلق ضحكة غامضة، قد يرحل الناس ولكن حكاياتهم تبقى، تحملها ذرات التراب والهواء والجدران المهدمة، أو المنتصبة فى شموخ تقاوم آثار الزمن.

فى جولاتهما بين الأطلال كان نادراً ما يتكلم، ولكن الحكايات كانت تنساب من حركاته وتعبيرات وجهه ونظراته المندهشة أو الذاهلة أحياناً.

ينصت إلى الجدران ويحاول أن يستنطقها «هيا هيا أخبرينى أيتها الجدران من كان يسكنك وأى أسرار تخفينها»، وأحياناً كانت تجود عليه الأطلال بأشياء تسره مثل قرط صغير من اللؤلؤ عثر عليه فى إحدى المرات.

فيسرح بخياله فى الحورية التى كانت تتقلده، هل كانت سعيدة، هل حظيت بالحب؟ ربما كانت عجوزاً ثرية امتلكت ثمن قرط ثمين، لم تتقلده أبداً، أو تقلدته لتخرج لسانها للزمن.

وأحياناً يأخذه فى جولات داخل الصحراء، وينظر إلى الرمال الممتدة:

«هل تخشى الرمال يافهد لقد دفنت جيشاً كبيراً منذ وقت طويل، آلاف الجنود أرسلها قمبيز».

يسأل:

«من هو قمبيز».

يقول:

«ملك حكم منذ سنوات كثيرة».

يلتفت إليه مبهوراً:

«هل كان قوياً»؟

«هكذا يظن المحكومون الملوك».

«ماذا افتقد»؟

يصمت أشرف ويسرح بعيداً.

يباغته فهد:

«هل أحب... هل أحببت»؟

يلتفت أشرف مشدوهاً كأنه يتأكد أن رفيقه طفل.

يواصل:

«سمعت من جدى أن الحب يقهر الرجال والملوك».

يضحك أشرف ويأخذه إلى الجانب الآخر من الواحة، حيث الصخب والاحتفالات.

إنه أحد الأعياد التى يأكل فيها أهل الواحة كثيراً من الثوم ويترنمون بالابتهالات.

يختلس النظر إليه بوجه شاحب، كأنه تلقى طعنة.

(٥)

طفل صغير يسأل رجلاً طاف العالم عن الحب؟ وهل كان يعرف معنى الكلمة؟

كان جسده وعقله ينتميان إلى دنيا الطفولة، أما روحه فتتجول فى كل عمر. أشباح تتنزه داخل رأسه، تؤله، وتذكره بمعان أزلية عرفتها روحه قبل أن يولد. سوف ينساها كلما كبر مثل أشرف وغيره.

وسوف يأتى طفل ذات يوم ليسأله: «هل تحب»؟

من كان هذا الطفل؟ لا يذكر. ولكنه كان أكثر قسوة.

سأله فأنكر: «لا لايمكن أحب».

يقول له: «لكنك تسرد الحكايات فى براعة، النساء يعشقن الحكايات».

كان يعرف أن الحكايات تجعله يلعب بالعقول ويحرك الخيال الراكد، وتؤكد النظرات أنه مدهش، ولكن حين ينفض الجمع لا يلبث أن يعود شعوره بالضآلة.

فى إحدى المرات أعد تلك الحكاية لامرأة أحبها:

«ليس كل الرجال مملين، سمعت بواحد كان يرقص للآلهة فى الزمن السحيق، أتوا به فوق سفينة من بلاد بعيدة، هل تظنين أننى من سلالته، أشعر أحياناً أننى قادم من وراء الأفق».

رفعت رأسها وكانت عيناها مثل بحيرتين غائمتين وتكلمت عن أشباح تطاردها فى رأسها، وعن ألم شديد:

«هل يوجد دواء وراء الأفق».

كان يريد أن يكمل حكايته ويصف رحلة القزم بالتفصيل، فيقول: كانت حياته فوق السفينة مثل السلطان، وكان محاطاً بالجوارى والبخور والجواهر الثمينة، وكان يرقص رقصات مذهلة.

أمسكت رأسها وقالت:

«آه آه الألم شديد».

قال:

«وراء الأفق يداوون الألم ويطردون الأشباح بالرقصات».

رقصا معاً حتى الفجر.

قالت:

«أظننى شفيت».

أغمضت عينيها الحزينتين بلا رجعة.

(٦)

لم تعد الواحة كسابق عهدها، لقد تغير كل شئ فى يوم وليلة، هجر السكان بيوتهم، واتجهوا إلى الجبل. كانت الأنباء تتواتر إليهم عن الحرب.

وانطلقت الشائعات أن الواحة ستحترق لا محالة، وكان أشرف يعلم بأمر الحرب، التى بدأت فى الناحية الأخرى من العالم وما لبثت أن عبرت الحدود.

هناك سرية من الجيش وصلت إليهم، رأى فهد بنادقهم وعيونهم المتطلعة إلى المجهول.

تسلل الخوف إلى أهل الواحة، بيوتهم ليست حصينة. اتجهوا صوب الجبل وبدأوا يدقون بمعاولهم أحجار الجبل. كان العمل يجرى على قدم وساق، يسابقون الزمن، ينشدون الأمان. لم يقصد أحد نبش الماضى ولكنهم وجدوه أمامهم.

كانت الأحجار تخفى مقابر تجاوز عمرها مئات السنين، ولكن النقوش الملونة والكنوز الصغيرة التى وجدوها، ومخابئهم الحجرية التى نحتوها، لم تهدئ من مخاوفهم، ولم تنسهم الخطر القادم. كانوا يمرون أمام النقوش الملونة التى تصور أشخاصاً يحملون مباخر، ويفعلون أشياء ليست مفهومة، فلا يتوقف أمامها سوى الأطفال يتحسسونها فتضحكهم وتبكيهم حين يبتكر لهم حكايات مرعبة عن أصحابها. وكان أشرف يستمع إلى تلك الحكايات، دون تصحيح منه، تاركاً الأهالى يحكون كوابيسهم كما أرادوا.

كان فهد يعرف أن جده لديه كابوسه الخاص، منذ بدأت تلك الأحداث.

وذات يوم زارهم أشرف فى الخيمة وأطال.

يهز الجد رأسه ويلتفت إلى الأفق البعيد. وأحيانا كان ينظر إلى حفيده بأسى، كأن العالم انطفأ داخله فجأة، وأدرك أن لا شئ يجدى.

فى ذلك اليوم البعيد قام الجد وفى يده قربة ماء وكسرات خبز. وقال «سأمضى الآن».

مشى الرجل العجوز متجها إلى بحر الرمال اللانهائي. تبعه فهد وأمسك بطرف ثوبه.

التفت إليه الجد وقال فى خشونة:

«لا تتبعنى بعد الآن»

بكى فهد بشدة فقال الجد:

«سأقوم برحلة أخرى».

سأله:

«إلى أين؟ هل ستذهب إلى مكة».

جذب الجد طرف ثوبه فى عنف واتجه إلى بحر الرمال:

«لا تتبعنى قلت لك.. هيا.. هيا».

لحق به أشرف وأخذه بعيداً عن طريق الجد.

«ألا تريد الذهاب إلى مصر، ألا تريد أن تتعلم قراءة النقوش المقدسة».

كان لصوته وقع السحر، وكان الجد يختفى.

(٧)

أخبره أشرف عزام ذات ليلة بقصة طروادة، المدينة التى خلدها هوميروس فى ملحمة واستفاض فى وصف الحرب الشرسة التى قامت على شواطئها، بسبب حب امرأة جميلة.

«وهل كانت قصة حقيقية».؟

يضيع صوت أشرف وسط الريح:

«هناك من صدقها وراح يبحث عن المدينة، لأن خيال الشاعر صور

طروادة كالحياة»؟

«وهل وجدوها».

«وجدوا أطلال تسع مدن».

«وأيهم طروادة الحقيقية»؟

«لا يهم فكل مدينة منهم كانت تحكى قصة، لا تقل حياة وألماً وبهجة عما ذكر فى القصيدة».

لم تعد الأرض كسابق عهدها. صارت جباً عميقاً يخفى العديد من الأسرار.

فى كل مكان سأل نفسه، هل توجد مدينة أو واحة ضائعة تحت قدميه. هل كان بين سكانها من يشبهه. هل وهب أحد منهم حياته للماضى. أم أن التنقيب عن الآثار مهنة حديثة.

يلتفت إلى أشرف فيجد وجهه شاحباً مرهقاً بالتساؤلات.

ترى فيم يفكر؟ لم يعرف أبداً.

لقد قدر له أن يصحبه سنوات طويلة ولم يعرف إلا القليل عنه، كانت له زوجة يحبها ويتشاجر معها وحملها مسئولية عدم الإنجاب. تزوجت بآخر وصارت أماً. وبقى وحيداً، أنقذه السفر من الألم، وحين التقى بفهد شعر بحاجته إلى ابن يعلمه معارفه.

تواصل معه فهد فى يسر كابن حقيقى.

ساوم الجد العجوز:

«دعه لى سأربيه كابن وسأمول رحلتك إلى مكة، من حقك أن تنهى حياتك فى الأرض المقدسة».

همهم الشيخ الكبير والتفت إلى حفيده وانقبض وجهه:

«هل ستعلمه قراءة الكتب».

هز رأسه:

«كل شىء.. كل شىء».

قال:

«أريده أن يتعلم القراءة».

رجع برأسه إلى الوراء كأنه يستعيد ذكرى حلوة وأكمل:

«في رحلتي السابقة كان يبيت معي رجل يحمل في حقيبته كتباً، وكان أحياناً يقص عليّ ما يقرأ، فتنبعث في روحي أضواء وألوان مبهجة، هل تبهج القراءة إلى هذا الحد»؟

«نعم نعم».

ابتسم العجوز كأنه يحاول الإمساك بذكرى تحاول أن تفر:

«ولكنه فتح كتاباً آخر وقرأ منه فشعرت بالحزن وبكيت وأدركت قلة ما أعرف هل القراءة تسبب الحزن»؟

بوغت أشرف ولم يرد فقال الشيخ:

«لم أتعلم الحروف، كان بإمكاني أن أفعل وقيدني ذكرى الصفحات الحزينة التي قرأها لي ولكن ما فائدة الحياة المديدة إذا لم نجرب».

أراد أشرف أن يقول شيئاً ولكنه بقي صامتاً.

هش الشيخ العجوز وقال بسعة صدر:

«حفيدي سيكون قارئاً، وسيقرأ المصحف الشريف، لا يمكن أن أتمنى له أكثر من ذلك، سأدعو لكما أمام الكعبة».

هكذا تم الاتفاق.

(٨)

سأل فهد:

«ما الذي أتى بهم»؟

همس أشرف عزام في أذنيه:

«إنها الحرب تجتاح العالم، ويبدو أنها على أبواب مصر».

شعر فهد ببهجة خفية، وهو يرى خليطاً كبيراً من البشر.

كان الجنود المصريون والانجليز والاستراليون والنيوزلنديون يجوبون الواحة من أقصاها إلى أقصاها ويملأونها ضجيجاً.

وكانت الحكايات تتراكم حوله بلغات مختلفة لا يفهمها.

كان فهد يخمن بعض الأحداث من نبرات الصوت. ولكنه أحس بوخز فى ضميره، حين هجر أهل الواحة بيوتهم وشقوا كهوفاً فى الجبل. إنهم خائفون وهو يتسلى.

هل يمكن أن ينزل الله به العقاب، لأنه فرح بهذا الزخم من البشر، ذوى الوجوه الحمراء والبيضاء والسمراء، الذين لا يكفون عن الهمس والحركة، وسرد الذكريات عن وطن تركوه وحبيبة تنتظر كلاً منهم.

كان شيوخ القبائل يستمعون إلى كلماتهم التى يترجمها أشرف ببساطة.

ولكن أشرف كان يضيف تعليقاته الحادة فيقول للشيوخ:

«مساكين يحلمون بالمستحيل، أى وطن وأية حبيبة، أوروبا تمزقها الحرب».

ينظرون إليه وإليهم فى رهبة، متعجبين من قسوته. فيعارضه أكثر من صوت:

«لا تقل هذا يا رجل، الله يسلم».

كان أشرف يرد بابتسامة، فهل كان يشعر بالبهجة والونس مثله.

كان أشرف عزام يرى فوائد أخرى لما يحدث. فقد تكالب أهل الواحة على الجبل، يحفرون بيوتاً. وأحياناً كانوا يفتحون بحفائرهم أبواباً إلى الماضى، ويكتشفون مقابر ومومياوات وأغراضاً صغيرة وأمشاطاً وقلائد وأوانى فخارية، وأقراطاً وهناك أيضاً الكثير من الحكايات الملونة المرسومة على الجدران.

كان الجنود يتسلون بمشاهدة تلك الرسومات واقتلاع مشاهد منها. كانوا بحاجة إلى الحصول على هدايا غير تقليدية لأحباء ينتظرون فى وطن بعيد. تسلوا لينسوا شبح الحرب والموت.

كان أشرف عزام لا يعجبه أن يتسلوا بالتاريخ، فيثور كلما اكتشف اختفاء أحد المشاهد التى كان يدرسها فى اليوم السابق.

حاول التحدث إلى شيوخ الواحة دون جدوى:

«لا تتركوهم يعبثون بالتاريخ، ستحول الحرب أوروبا إلى رماد، فإلى من يعدون تلك الهدايا».

لم يفهم أهل الواحة ما يقوله، كانت الطائرات تواصل قذفهم من الجو. وتحول الواحة إلى قطعة من جهنم. ما فائدة الأحجار المرسومة أمام الموت.

يُحبط أشرف، لا يمكنه أن يدافع عن التاريخ والموت يتربص بالجميع، وكان فهد كثيراً ما يستيقظ، ليجده إلى جواره يدخن غليونه ويحدق فى الفراغ. لقد كان مجيئه إلى الواحة صعباً.

قالوا له:

«هل أنت مجنون، الحرب العالمية الثانية تقترب من هناك».

اضطر أن يكتب إقراراً بأنه مسئول عن موته أو حياته إذا أراد القيام بتلك الرحلة.

الحقيقة لقد أراد الموت، تمناه. كان الظلام داخل روحه، يشعره أنه مجرد جسد يتحرك ويأكل وينام. فور وصوله الواحة، حدثت المعجزة، أنقذته الينابيع وظلال النخيل، وفهد من نفسه.

قرأ فى عينى فهد ما أخافه، كان يفكر هو الآخر فى الموت، ويبحث عن مرفأ، عن طوق نجاة.

ربت على كتفه قبل أن يعرف اسمه:

«جئت من أجلك».

***

ذات يوم صدرت أوامر الرحيل إلى القوات المعسكرة فى الواحة.

اختبأ فهد خلف إحدى النخلات، وتابعهم، الوجوه التى التفتت نحوه أخافته. كانت عيونها منطفئة، لا خوف فيها، لا أمل، لا بهجة أو تعاسة، تحولوا إلى أجساد تسير، أما الروح فتبخرت، هم أموات دون شك.

أحدهم ترك سريته، اقترب منه وقال بمزيج من لغة أهل الواحة،

وانجليزية وعربية ركيكة:

«فهد لماذا تختبىء، لا تخف تعال».

لم تكن اللغة عائقاً، فهم فهد بطريقته.

أمسكه الجندى ونظر فى عينيه:

«أنت تظن أننا مجرد أموات».

ارتعد فهد لأن أفكاره التى تصورها سرية لم تكن كذلك.

اتسعت عيناه الزرقاوان.

«لم أتوقع هذا منك، أنت تفكر كعجوز، توقعت أن تودعنا بأفكار مدهشة كالتى تدور فى رؤوس الأطفال».

تنهد:

«لا تنس الألوان، مهمة الأطفال تلوين العالم».

كشف ذراعيه، ظهر بوضوح وشم لامرأة حلوة. ضحك:

«هذه سيسليا، سأعيش من أجلها ومن أجل طفل نحلم به».

خبط على صدره بقوة وصرخ عالياً:

«أنت لا تصدقنى، ولكنى سأحيا، لدى تصميم على ذلك، لن أموت، سأحتفل بعيد ميلادى المائة فى هذه الواحة. إليك الدعوة» أعطاه ورقة ملفوفة بعناية.

قال بصوت هامس:

«ستأتى، ستكون وقتها مجرباً، وسنتفاهم أكثر».

خطوات وسقط الرجل تحت الأقدام.

انحنى أحدهم فوقه:

«لقد مات».

علت الأصوات:

«حتى قبل أن يحارب».

«لم يكمل حتى الثلاثين»!!!

اقترب فهد من ذراع الرجل، وتأمل الوشم المرسوم عليه، كان الرسم يزداد شحوباً، رأى فهد المرأة المرسومة تتثاءب، وتغادر الذراع البارد. اختفت بين النخيل، وتابعت جنازة الرجل الذى تحب.

التفتت إلى فهد وقالت:

«سأذكره دائماً ولكنى لن أدفن مع رجل عاملنى كوشم وليس كامرأة».

مطت شفتيها:

«لن تفهم أنت مجرد طفل».

(٩)

«ماذا بعد رحيلهم هل ستقتلنا الحرب»؟.

كان فهد يريد أن يسأل أسئلة أخرى، ولكن ابتسامات أشرف الشاحبة ردته، إنه خائف مثله وأكثر.

كان أشرف يأخذه فى جولات بين الأطلال، ويتفادى اللقاء بأهل الواحة. كى لا يرى نظراتهم الزائغة، وأمارات الجوع التى أخذت فى صبغ ملامحهم.

يستند إلى حائط بيت مهجور ويقول:

«هيا يا فهد اعزف».

ترجف أصابعه والناى. فيأتى اللحن هذه المرة كأنه أنات طويلة.

فى تلك الأثناء، وعلى بعد عدة دروب. كان مأمور الواحة داخل القسم، يدور كالنحلة وحوله الشيوخ، يحاولون إيجاد مخرج من نفق الموت.

قال بصوت يشوبه القلق:

«لقد أرسلت إلى الواحة البحرية طلباً للإمدادات».

أطرق الشيوخ بلا إجابة، نظر أحدهم من النافذة إلى أطلال المدينة القديمة كأنه يراها لأول مرة:

«هل تسمعون، لقد عاود الجن العزف».

رفعوا رؤوسهم، كانت الألحان العذبة تتوالى إلى مسامعهم وتفجر داخلهم شعوراً مبهماً.

قال:

«لو قدر لنا النجاة سوف أتبع ما تقوله الألحان».

سأل أحدهم:

«وماذا تقول»؟

قال:

«لا أدرى، أحتاج إلى الوقت كى أفهم، هل نملك وقتاً».

علت الكآبة الوجوه.

تطلع مرة أخرى من النافذة وتغيرت نبرته:

«تعالوا تعالوا انظروا ماذا أرى».

كان الغرباء ينتشرون فى كل مكان. إنهم ايطاليون، ساعات وكان العلم الايطالى يرفرف فوق مركز البوليس. انضم إليهم جنود ألمان بعد أيام. لم ينشغل أهل الواحة بجنسياتهم وأسمائهم وإلى أى فريق ينتمون..

الأسماء لا تهم وقت المجاعات.

أمدوا الواحة بالطعام اللازم، هم إذن أصدقاء..

كان أشرف عزام، يقضى ساعات معهم. ما الذى كان يقوله لهم؟.

كان يكتب لهم على أوراق البردى بالهيروغليفية.

يهمس له أحياناً «إنهم أعداء الانجليز والانجليز أعداء مصر».

ولكن أهل الواحة لم يفكروا بهذه الطريقة. كانوا يتفاهمون مع الغرباء دون كلمة، يتبادلون الأشياء ويتشاركون شرب الشاى فى حدائق الواحة الساحرة.

وكان فهد يرقب الجنود، وهم ينظفون بنادقهم ويضحكون، أحياناً كان يتوقف أحدهم ويحدق ناحية الجبل ويتجاوزه إلى ما لا نهاية، ويطأطىء فى أسى، كأنه تذكر فجأة أن الحياة أقصر وأجمل مما تصور.

حل روميل بالواحة ضيفاً لوقت قصير. لم يتمكن فهد من حفظ ملامحه ولكنه كان يتنقل بخفة الظل من مكان إلى آخر. وقف قبالته وناداه، وترجم له

أشرف:

«أعطه شيئاً يذكره بك يافهد».

شعر فهد بالحيرة، رفع رأسه وأشار إلى النجوم التى تملأ السماء.

قال له روميل:

«وهل تملك النجوم».

أجاب:

«تصحبنى منذ سنوات».

ربت روميل على رأسه:

«وسوف تذكرها عندما تكبر»؟

حدق روميل فى السماء وتنهد.

(١٠)

تركا الواحة صبيحة أحد الأيام، على ظهر جملين. اصطحبهما دليل اسمه ساهر من أهل الواحة خبير بدروب الصحراء ومفاجآتها.

كان فهد يراقبه وهو يحجل أمام الركب كطائر جريح، بجسده الضئيل ووجهه الشبيه بعلامة تعجب لا نهائية وعينين كجمرتين، تبعثان شرراً أحمر فى الوديان والجبال المحيطة.

وكان يهمهم بهلاوس كلما انتصف الليل:

«فى مثل ذلك الوقت منذ أعوام كنت أسير وحيداً فى الصحراء، ثم ظهرت لى فجأة من خلف تلة رملية».

ثم يصمت تاركاً فهد لخيالاته المخيفة، أما أشرف عزام فكانت تضحكه تلك الحكايات.

يداعبه قائلاً:

«وهل كانت حلوة».

كان ساهر يلتفت إليه فى حذر ولا يرد.

أما الليالى التى يشتد فيها البرد. فكان يستغرق فى الرقص والغناء،

وكان صوته مثل السوط. وكان أشرف يصفق له، ويهمس لفهد، احترس منه ولا تغضبه، إنه مجذوب، ولكنه خبير فى الطرق الصحراوية، ولن نضل، لقد جربته. إن جنونه مسل ومؤلم كما ترى.

صفق ساهر بيديه حتى احمرتا وقال:

«كان ياما كان فى زمن غير الزمان، أحب واحتنا رجل شجاع وشهير وزارها كى يعرف مستقبله، وهناك فى المعبد التقى بثمانية من الكهنة وأخبروه بسر. عاد إلى وادى النيل من هذا الطريق الذى نسير فيه، وكان سره يثقل كاهله، جلس هنا ورفع رأسه وتأمل السماء وأخبرها بالسر».

يسأله أشرف فينتفض فى رعب:

«من تقول؟ هل تقول الإسكندر أو من؟ من؟ الكتب أخبرتك بذلك؟، لا أعرف شيئاً مما تقول ولكنى أعرف روح صاحب السر، هى تعرف الطريق أكثر منى».

يدور حول نفسه، يصفق ويغنى ويواصل السير.

كانت القصص تتوالى وساهر لا يهدأ كلما توغل فى الحكى، كأنما أخافته حكاياته، من أين تأتى؟ وكيف ستنتهى؟

انتهت الرحلة ذات صباح، حين فتح فهد عينيه ليجد نفسه أمام بناء مهول، لم يعرف كيف يسميه.

يردد صوت:

«هل تعجبك الأهرامات».

كان فهد مذهولاً لم يكن قد رأى شيئاً كهذا. كانت بناية عجيبة لم يتوقعها، أعجب من كل هلاوس ساهر. فلم يلحظه وهو ينسل بالجمال راجعاً إلى الواحة.

(١١)

أفاق فهد كان رأسه يؤلمه، ولم يستطع الحركة.

أين هو؟ هيئ له أنه داخل إحدى شطحاته، كان كل شىء معتماً، نتوءات

تدلى من أعلى ونيران تشتعل فى أحد الأركان وهمهمة وشخللة خلاخيل لامرأة منحنية على موقد تقلب فى إناء.

عكست النيران رسومات ملونة فوق الحوائط، ألم يترك الواحة بعد؟ أين الأهرامات؟ أين أشرف عزام؟ ولكنه ليس طفلاً، كان واثقاً من ذلك، ليس بحاجة إلى إثبات ذلك، فالذكريات تتكاثف داخل رأسه، والألم لا يدهشه. أليس هذا دليلاً قاطعاً على أنه شيخ كبير.

أراد أن يتأكد فقال بصوت واهن:

«ماء.. ماء».

التفتت المرأة إليه فى جزع كأنما وثب عليها فأر بغتة. وصرخت:

«لقد أفاق.. أسرعوا.. أسرعوا».

اقترب منه ملثمون، لم يندهش، لا يريد تفسيراً سريعاً لما يحدث، يحتاج فقط إلى كوب ماء.

تحلقوا حوله، أعطاه أحدهم كوباً نحاسياً كبيراً. أمسكه واعتدل قليلاً وحدق فى صفحة الماء المتراقصة. طالعه وجه ملىء بالتجاعيد، مضمد بشاش أبيض:

«لقد كنت أحلم بالماضى، ولكن الحقيقة أننى عجوز».

تحسس الضمادة:

«هل أصبت»؟.

لا أحد يرد، لا يهم، لا يريد تفسيراً سريعاً. سيعاود النوم قليلاً.

تلقفه أحدهم برقة، وفيما يشبه الأمر، قرب الكوب من شفتيه، وصب الماء فى جوفه. إنه يريد أن ينقذه، مادام سقاه، لن يؤذيه، حياته مهمة بالنسبة إليه.

شعر باطمئنان وأغلق عينيه:

«سأستريح قليلاً».

الخيالات تدور من حوله وتنحنى فوقه لتحكم الغطاء.

إنهم مهمومون براحته، يمكنه استدعاء المزيد من الأحلام.

(١٢)

أخذه أشرف فى جولات لتأمل النقوش الملونة.

وجد فهد نفسه يغرق فى طوفان من الأحبال المجدولة، النسور، برك المياه، المزاليج، الشفاه، التلال، الأفاعى، السلال، الأمواج، الدوائر، النباتات.

كانت النقوش تأخذه فى دنيا الأحلام وخاصة حين همس أشرف له ذات مساء وهما يرتجفان من البرد أمام جدران معبد:

«هذه ليست مجرد نقوش، بل كلمات تقص العديد من الحكايات».

بعد ذلك شرع فى تعليمه اللغة المصرية القديمة، هكذا كتب اسمه بالهيروغليفية. أفعى نارية ذات قرون خطيرة وسامة لحرف الفاء، أما الهاء فكانت بيتاً زهرياً تمنى أن يضمه إلى الأبد. والدال كف بيضاء تصافح العالم فى حرارة.

تعلم هذا قبل أن يتمكن من تهجى اسمه بالعربية، أبقى الورقة معه، كأنها تعويذة سحرية، مازالت معه فى مكان ما.

كانت نقوش الاسم تطارده فى أحلامه، هل كانت نبوءة؟

يؤمن بقوة النقوش وسحرها وغموضها، ونقوش اسمه خاصة لم تكن سوى قدر. فروحه تشتعل كأفعى الفاء كلما كان على أعتاب كشف أثرى جديد. أما الهاء فأثرت فيه بشدة، فجعل مكان راحته واستجمامه خيمة زهرية حملها فى كل مكان، وكان يعتكف فيها أياماً ليكتب قصص كشوفه الأثرية. أما الدال الشبيهة بكف فقد منحته الجرأة والحرية، وجعلته يفتح أبواباً ونوافذ بينه وبين العالم.

إنه يعرف الكثير الآن ولكن كتابة اسمه بالهيروغليفية، منحته لذة الكشف الأول والمعرفة الأولى. والباب إلى الحلم.

كانت حياته حلماً تتخلله الكوابيس. تذكر طعم الماء الذى شربه منذ قليل، سمع همهمة تقول:

«لابد أن يستيقظ.. متى يستيقظ».

اقتربت منه رائحة نفاذة وحلوة، إنها امرأة، يكاد يقسم أنها كذلك، فليستدير ويفتح عينيه ويتأكد. تبخرت الرائحة دون أن يجرؤ على الحركة.

الكتابة
فوق الجدران

(١)

السياح يتوافدون على الواحة، يصحبهم المرشدون، يتحدثون بألسنة مختلفة: انجليزية، فرنسية، ألمانية، نرويجية، أسبانية، وغيرها.

من بينهم امرأة أمريكية بصحبة مرشد خاص، تصر طوال الوقت أن تتحدث العربية، تتعثر فيلتقط المرشد باهى الخيط، تواصل عدة عبارات بطلاقة قبل أن تتوقف مرة أخرى ويساعدها.

تحمل فى حقيبة هاندباج صغيرة الكاميرا وبعض الأدوات، عدسة مكبرة، جهاز لاب توب صغير، بطارية.

حتى الأمس كانت تضع فيها خريطة مرسومة على جلد غزال، تركتها عند متخصص فى المصريات اسمه فهد، يسكن أسفل الجبل فى خيمة زهرية اللون، مزينة برسومات فرعونية وزهور لوتس.

لم يكن الأمر سهلاً، فهى الذكرى الوحيدة الباقية من جدتها المصرية مكية. كثيراً ما جلسا فى القاهرة أسفل مصباح فى محاولة لفك شفراتها.

فهد تمكن من ذلك، وهو عاكف الآن ليحل ما تبقى من ألغاز.

وقفت حبيبة بجوار صخرة كبيرة، داخل أحد كهوف الواحة، ومن خلفها كان المرشد السياحى باهى يحدق بعينين سوداوين.

سألته:

«هناك رسالة حقا»؟

رد بصوت يشبه هدير موج:

«يبدو كذلك».

شعرت حبيبة بالإثارة، إذن ما قاله البروفيسير فهد حقيقى، لقد دون جدها حكايته فوق جدران كهوف الواحة.

بدأت القراءة يساعدها باهى كلما تعثرت.

«اسمى عبدالرحمن صقر، هل هذا يهم؟ لى وجه بيضاوى، عينان صغيرتان، لحية بلون الثلج.

أكتب فوق الجدران كى أخلد حكايتى، ربما يقرأها ذات يوم أحفاد لن أراهم، لا أريد أن أمر بلا أثر.

لى زوجة وابن فى القاهرة، تركتهما منذ سنوات، زوجتى مكية ذكية.

قلت لها: «أريد أن أسافر كى أتعلم أكثر».

فهمت أن رحيلى سببه مرضى الغامض وألم أحاول مداراته.

قالت: «سأرحل معك».

وعدتها: «سأعود لا تخافى».

مكية صلبة، لم تبك.

كانت القاهرة تغلى يوم رحيلى، نساء، أطفال، رجال يهتفون ضد الاحتلال، يحملون صورة سعد زغلول، أرادت مكية أن تدفن قلقها، وقررت الانضمام للحشود.

هتفت: «تحيا مصر.. يسقط هينز».

كانت نبراتها ترتجف، تحس ضعفاً وتخفيه، تلومنى بنظرات كالخناجر: «ليس من حقك»..

كان ابننا ينظر إلى الطريق، قال بصوته العذب: «لقد خرج المتظاهرون يا ...ى»، قادها إلى الشارع الرئيسى.

شعرت باطمئنان، البلد يتغير، سيعيش ابننا فى مستقبل أفضل، لن ...تاج إلىّ، مضيت وحدى فى الطريق الذى اخترته. ألم شديد بالبطن كان ...تاحنى من وقت لآخر. ألم ذكرنى بالموت. لم تنفع معه وصفاتى الطبية، ...ت فلأفتش عن مقبرة، سأفعل هذا وحدى ولتظن مكية ما تشاء..

وصلت الواحة صباحاً، كان الشيوخ مجتمعين عند بوابتها يتناقشون. ...مت، صمتوا. نظروا بريبة، تقدم منى أحدهم وتحدث معى بالعربية، عرف ...ى طبيب. كلمات قليلة منه كانت جواز مرورى إلى الداخل. استضافنى فى ...ة مبنية فوق غرف كثيرة.

كنت أستطيع أن أرى من نافذة صغيرة، الأفق، التلال، مئذنة الجامع.

مرت أيام، وخف الألم داخل أحشائي، حتى خلته وهماً».

هناك بعض أسطر غير واضحة؟ سألت حبيبة.

حدق باهي وبعد مداولات عديدة قرآ معاً.

«وشعرت برغبة شديدة في الصلاة».

قالت حبيبة:

«وأنا أيضاً أشعر بذلك».

قال الدليل:

«هل نأخذ استراحة».

أومأت:

«ولكن بعد أن أقرأ الرسالة مرة أخرى».

في المرة الثانية لاحظت نقشاً جانب الرسالة، حدق الدليل وقال لابد أنه يقصد «عنخ». كلمة فرعونية بمعنى الحياة.

أخرجت حبيبة الكاميرا والتقطت بعض الصور.

(٢)

وضعت حبيبة صوراً للكهف وللرسالة على الفيس بوك. كما وضعت صورة التقطتها لباهي، مؤكدة أنه صديق حقيقي. بفضله بدأت خيوط القصة تتضح.

وصلت الواحة منذ بضعة أيام، ليس معها سوى خريطة، مليئة بالأسهم، الحروف، الأرقام، النقوش.

انكب باهي فوق تلك الألغاز دون جدوى، ثم اصطحبها إلى خيمة، يسكنها قزم عجوز.

عرّفهما «البروفيسير فهد».

«حبيبة».

اشتبك مع فهد في حوار طويل. نسيا وجودها، جلسا يتباحثان، يرسمان خطوطاً ودوائر فوق أوراق بيضاء. ثم التفت إليها القزم وقال بنبرة خشنة:

«لقد كان جدك فيلسوفاً، تقول النقوش أنه كتب لك رسائل فوق جدران كهوف الواحة، لابد أنه مفتون بالخلود».

أبدى البروفيسير فهد اهتماماً بالرسائل، حدد أماكن عدد كبير منها.

«تعرف أماكن الكهوف يا باهى، أغلبها فى جبل الموتى».

تأمل الخريطة فى شغف وكان وجهه يزداد شحوباً وذهولاً، كلما توغل فى طلاسمها.

تغير صوته كأنه قادم من عالم آخر:

«أحتاج إلى وقت كى أفهم المكتوب».

بادره باهى:

«يمكنك الاحتفاظ بها قدر ما تشاء».

بدا على حبيبة القلق، طمأنها باهى:

«البروفيسير فهد عالم مصريات معروف وهو من أهل الواحة».

انصرفا دون أن يشعر فهد، استولت عليه الخريطة المرسومة على جلد غزال.

(٣)

«وجدت رسالة أخرى»

رج صوته أنحاء الجبل.

كانت حبيبة فى الأسفل، صعدت مسرعة، كادت قدماها تنزلق أكثر من مرة بين الصخور. اقتربت منه:

«أين»؟

قرأ باهى ما سجله عبدالرحمن سريعاً وقال:

«يبدو أن جدك الأكبر، مارس مهنته بحرية فى الواحة، لقد طلب منه أحد الشيوخ معالجة ابنته وسمح له بإقامة معمل دواء صغير».

تخيلت حبيبة جدها فى وضعه الجديد، هل كان سعيداً؟

إنه لا يسجل شيئاً عن السعادة: ففى إحدى الليالى استيقظ على صوت طرق شديد. اصطحبه الشيخ عبر درج ضيق، أدخله غرفة معتمة، أشعل

مصباحاً فتراقصت أشباح وخيالات، ورأى بوضوح جسداً يتقوس فوق الحصير، ونسوة عجائز يصنعن التمائم ويشعلن البخور، ويهمهمن بأصوات مخيفة.

قامت إحداهن وكان لها وجه كضفدع مذعور، همست فى أذن الشيخ بكلمات، أشارت إليهن، فخرجن الواحدة تلو الأخرى.

خبط الشيخ رأسه وقال:

«أسمعت؟ لقد تمكنت الشياطين من جسد ابنتى».

استأذن عبدالرحمن، اختفى دقائق، عاد ومعه صندوق مليء بالزجاجات، قاوم ألماً اعتراه فجأة، وانهمك فى صنع الدواء الذى قرره.

اقترب من الفتاة التى انساب الآن جسدها مثل موجة تائهة، سقاها قليلاً من دوائه، انتفض الجسد بشدة ثم سكن.

توالت الأيام، تحسنت حالة البنت، وسط ذهول الشيخ.

زار عبدالرحمن مريضته. كانت تضحك كالكروان، تغنى وتتحرك بحرية فى أنحاء الغرفة. كانت تشبه الملائكة بوجهها وجدائلها.

قال عبدالرحمن:

«لك صوت من الجنة».

حدقت نحوه وابتسمت.

أما أبوها فكان وجهه يتكدر كلما غنت.

فوق صخرة أخرى اكتشفت حبيبة أن الفتاة عمياء واسمها حنين.

انتصف اليوم وحبيبة تدون الملاحظات وتلتقط الصور، وفى لحظة ما توقفت.

سأل باهى:

«هل تعبت»؟

«لا».

فقط تريد أن تنعزل بنفسها.

سألها:

«هل نمر على البروفيسير فهد»؟.

نظرت إليه ذاهلة ولم ترد، هنا مشاعر كثيرة تجتاحها.

همست، استفهم منها باهى، فردته:

«لا شىء.. لا شىء.. يمكنك أن تذهب إلى البروفيسير لو أردت، أما أنا فوجهتى الفندق».

(٤)

فى اليوم التالى، قررت حبيبة البحث عن رسائل جديدة بمفردها. تأملت بحر الرمال الممتد أمامها، خطرت لها مشاهد من حياتها الألم، الخداع، الغضب وشعور غامض توهج داخلها دون إنذار.

حلقت إلى أيام طفولتها، لم يكن يؤنس وحدتها سوى أشباح وجنيات الحواديت.

كانت تبتكر كثيرا من الشخصيات لتشعر أنها تعيش فى زخم من الناس، الأحداث ، الألوان، النغمات، الأصوات، كان يلذ لها أن تغضبهم، وتحيطهم بكثير من العناد والعويل. ولا تتمادى، كى لا تخيفهم فيهربوا من قصصها، ولا تتمكن من استدعائهم مرة أخرى. التفتت يسارا فهالها بحر الرمال الصامت.

قطعت رحلة طويلة لتأتى إلى هنا لتفتش عن جذورها وتاريخ عائلتها ليس معها سوى خريطة، وقصص سمعتها من جدتها مكية. قبل موتها قالت:

«كان عبدالرحمن وحيدا، مهما أحاط الصخب به، كان كمن يحيا داخل سرداب زجاجى، يحدق فى كل شىء بعينى طفل، كيف وافقت على رحيله، كنت واثقة أنه سيعود».

تكلمت كثيرا عنه، فهل فهمته ؟ أم أنها كزوجة، تصورته كتابا مفتوحا أمامها وقراءته سهلة.

لم تعرف شيئا عن الحلوة العمياء والرسائل المكتوبة فوق جدران الكهوف. لم تتحدث عنه بالطريقة التى كتب بها عن نفسه.

تخيلت مكية تنظر إليها من الأفق، وتحثها على استكمال رحلة البحث، لاكتشاف الرجل الذى عاشت معه، وظنت أنها ملكته .

انقضى النهار ولم تجد حبيبة أية رسائل، انزلقت قدماها وهي تتسلق إحدى الصخور وأصيبت بخدوش مؤلمة.

ستعود إلى الفندق تصورت أن الحركة دون باهى ممكنة، كانت بحاجة إلى الاطلاع وحدها على رسائل عبدالرحمن وأسراره. ولكن التجربة أثبتت أنها فى حاجة إلى الدليل.

ستستريح قليلا ثم تعود، استندت إلى أحد الجدران. صرير يأتيها من أعماق الكهف، كأنه همسات مخلوقات خفية، هل عاودتها هواية ابتكار الشخصيات والحكايات !!

***

قضى باهى الصباح فى خيمة البروفيسير فهد وتحدث إلى خادمه العجوز زبير.

كان زبير يكبر فهد بأعوام قليلة، ولكن الحديث معه غير مجد. فهو يمزج ما حدث بالفعل مع ما ظنه حدث.

«البروفيسير بالخارج، لقد اكتشف أثراً جديداً».

«أين»؟

يحك زبير رأسه

«مادام لم يعد منذ البارحة، فلابد أنه اكتشف شيئا، كثيراً ما يبيت فى الموقع».

يسأله باهى بنفاد صبر:

«أين .. أين هذا الموقع»؟

ينظر إليه زبير بتبلد:

«إنه فى الموقع.. قلت لك».

«قل له أننى مررت، سأعود لاحقا».

أسرع باهى فى اتجاه الفندق فتش عن حبيبة فى كل مكان لم يجدها، لقد تأخر.

(٥)

التقيا فى اليوم التالى، كرر باهى اعتذاره، بوجه شاحب.

وخزها ضميرها ، فهى من أرادت الانفراد بنفسها فى اليوم السابق، خرجت مبكرة من الفندق قبل موعدهما. لم تتنبأ بأنه سيتأخر. لكنها أمسكت بزمام الموقف وقالت ضاحكة:

«يجب أن تعوضنى اليوم، عدنى أن نجد شيئا قيما خاصاً بعبدالرحمن».

هز رأسه فى حيرة، إنها أغرب تجاربه كمرشد سياحى. امرأة تحمل جواز سفر أمريكى، وتتحدث العربية بلكنة غربية، وتفتش عن جذور مصرية فوق جدران كهوف الواحة.

كانت حبيبة فى تلك اللحظة تعتبر طفولتها التى قضتها فى أمريكا وهماً، يثير ألمها وجنونها. لن تبقى فى ذاكرتها إلا الأشياء التى تربطها بمصر.

أجرت البيت الذى يخصها بالقاهرة بعد وفاة مكية بأسابيع. أعطته لامرأة صينية، لمحت فى عينيها حبا حقيقياً للمكان.

كانت حبيبة مستغرقة فى أفكارها، أفاقت على صرخة انتصار أطلقها باهى، حين عثر على إحدى الرسائل مدونة فى أغوار كهف.

هرعت نحوه، أشعلت مصباحاً واستغرقت فى القراءة.

لقد صور جدها حنين كأسطورة، لم ينتبه نووها إلى كونها عمياء، كانت تتحرك مثل فراشة بين النتوءات، الأثاث، الأغراض المختلفة.

تثنى على ثيابهم الجديدة، ولها رأى فى الألوان، وصنعت بيديها ثوبا مطرزا أذهل نساء العائلة. كانت تعلق على أمارات الحزن والفرح البادية على وجوه كل منهم. تخرج إلى حدائق الواحة وتركض مع الفتيات وتغنى كحورية.

كيف لهم أن يخمنوا، أن تلك الفتاة المدهشة لا ترى.

أخبرت عبدالرحمن بالسر، لقد ولدت عمياء ولكن كيانها تحول إلى عين كبيرة، تلتقط ما لا يلتقطه المبصرون.

هذه العين انطفأت حين فقدت الرجل الذى تحب.

التقت به فى إحدى حدائق الواحة، كانت هناك كعادتها بصحبة خادمتها، اندمجت فى الغناء، وفجأة انبعث من عند النبع نغم ناى شجى، كأنه صدى لأغنيتها .

تكرر ذلك فى الأيام التالية، مما أثار رعب الخادمة، التى ظنت أن جنياً وقع فى غرام سيدتها.

ولأن الحب لا يمكن إخفاؤه، أظهر العاشق نفسه، أهداها نايه وأعلن أن الحياة بدونها جحيم.

عرف أهل الواحة، وتقدم الفتى لخطبة حنين. كان ينتمى إلى إحدى العائلتين الكبيرتين فى الواحة، وحنين تنتمى إلى العائلة الأخرى.

بين العائلتين معارك وضحايا.

فى تلك اللحظة كان السلام يعم والابتسامات تعلو الوجوه كلما التقى أفراد العائلتين، ولكن الكراهية كانت تتسلل فى خفة وخفاء من جيل إلى جيل، لتنبت الشوك فى قلب أحدهم.

لم يحتمل أن يرى ابنة شيخ العائلة تغنى بصحبة عدو وتتزوجه. صرخ فى وجه الجميع، «إذا كان شيخنا قد نسى الماضى، فأنا ابن الماضى».

تربص للفتى وغرس فى قلبه خنجرا حادا. سقط صريعا تاركا حنين فريسة للمرض، والحسرة والظلام.

أعلنت للجميع أنها ولدت عمياء ولم يصدقوها. صارت تتعثر مع كل خطوة. انزوت قدراتها الخرافية. هجمت عليها نوبات عجيبة، فتخشب جسدها وتشعلقت عيناها فى الفضاء، وحامت حولها الهلاوس.

كان عبدالرحمن يستمع إلى قصتها، ولا يعرف كيف يبعث فى روحها البهجة مرة أخرى.

كان المرض يشتد عليه، وظن الموت يلوح. تحامل على نفسه، صنع لها العقاقير، وصاغ من أجلها كلمات حلوة، وكانت حالتها تتحسن.

أخبرته ذات يوم أن معجزة ستحدث. أخرجت من بين أغراضها الناى وقالت كأنها تؤكد نبوءة «هو لك».

كان زبير مستلقيا أمام الخيمة ، مغمض العينين ، حين مر باهى عليه ليسأله عن البروفيسير فهد.

فتح عينيه بتكاسل ولم يرد.

دائما ما تتوه الكلمات منه ، الصور تتزاحم داخل رأسه ، أما الكلمات فتخرج منه بصعوبة:

«إنه .. إنه» .

قاطعه باهى بنفاد صبر:

«هل هو فى الداخل»؟

هز زبير رأسه نافيا

«ومتى يعود؟»

حرك زبير كفيه وحاول أن يفتش عن الكلمة المناسبة ، تمتم:

«إنه .. إنه ...»

تركه باهى حانقا وأسرع إلى الفندق، فهو لا يريد أن يتأخر مرة أخرى.

استمر زبير فى التهتهة ، ثم صمت . ولكن الصور كانت تتوالى داخله قوية ملونة ومخيفة.

ترى أين ذهب البروفيسير ، لقد مر وقت طويل على غيابه. لم يفترقا قبل ذلك أكثر من يومين ، أما الآن فكم مر ؟ لا يدرى.

شعر بالخوف ، سيذهب إلى الميدان ، ويحتسى الشاى فى المقهى ، طلبا للونس.

فى الماضى كان أكثر جرأة ، ويتخذ القرارات المصيرية. كان ميلاده بالواحة ، ولد صغيراً داكن البشرة ، من سلالة العبيد الذين ابتاعهم أسياده منذ مائة عام أو يزيد.

كاد يستسلم إلى مصيره ، لولا همس سمعه ذات مرة من عبد عجوز ، جعله المرض والشيخوخة يتكوم فى إحدى الغرف.

كان يحمل الطعام إليه ، ويسمعه يدندن بأغان عن الحرية والعودة إلى الوطن.

أخبره ذات يوم أن جده ولد فوق قارب قريبا من شلال ، قال له «فتش عن وطنك ولا تمت مثلى ، جرب الحرية مثل جدك».

داهمه الحنين إلى وطنه ، تخيله مكانا بهيجا ، مليئاً بالألوان والعطور.

قرر الهروب فور موت العجوز. دهن بشرته بالزيت ، واختبأ بين النخيل ، متحينا فرصة ما . كاد يمسك به اثنان أو ثلاثة من أتباع سيده ، وكان ينزلق من بين أيديهم بفضل الزيت.

اعتبره كثيرون شبحاً يتنقل فى المساء بين النخيل. كان يريد اقتناص الفرصة والوسيلة لإكمال هروبه إلى الوطن. تبع أشرف وفهد وهما يغادران، بصحبة دليلهما ساهر.

تبعهم عاريا فوق الرمال والصخور ، بعد عدة كيلو مترات اكتشف ساهر وجوده ، ولم يعترض . كان يتسلل إليه فى الخفاء ، ليطعمه ويسقيه ويتسامر معه.

نصحه ساهر:

«لا تتكلم كثيرا ، ولا تحك القصص ، يلقبوننى بالمجنون بسبب قصصى المذهلة».

فور وصول القافلة إلى نهاية الرحلة ، أظهر نفسه ، كان فهد مشدوها بالأهرامات ، ولم يلحظه ، أما أشرف فرحب به ، كأنه توقع وجوده، سأله:

«ما هى وجهتك»؟

أراد أن يقول حيث الوطن أسفل الشلال.

ولكنه هز رأسه دون كلمة.

بقى مع فهد ، ولم يتراجع عن صمته.

كان يقوم بالأعمال التى تعود عليها فى الواحة ، ورغم تحرره من العبودية وتأكيد أشرف أنها ماضٍ لم يعد له وجود ، تدينها القوانين والإنسانية ، تملكه شعور أن العبودية مصير ، يكبل البعض فى سرية ، دون أن يلحظ الآخرون ذلك.

هكذا كان يشعر ، فتش عن شجاعته ، التى مكنته من السير خطوات، فى طريق الحرية الطويل والصعب دون جدوى. ومع الوقت تمكن منه الخوف وتآكلت الكلمات فى حلقه إلى الأبد.

صحب أشرف وفهد فى جولات حول العالم.

كانت الصور فوق الكنائس والمعابد تؤرقه ، أما الأقواس والقباب فتجعله يدور فى دائرة ، لا فكاك منها ، ولكنه حاول البحث عن وطنه دون أن يخبر أحداً.

كان يتوقف طويلا أمام الشلالات ويتساءل ، أيها كان يقصد العبد العجوز دون أن يهتدى.

***

امتلأ المقهى بأهل الواحة ، بعضهم حيّاه وسأله:

«كيف حال البروفيسير».

ارتشف زبير الشاى ، وحاول أن يدارى أفكاره.

(٦)

لم يعرج باهى على المقهى كعادته لاحتساء شاى زردة، عبر إلى الجانب الآخر من الميدان. أوقف إحدى الكارتات، خاطب السائق:

«بسرعة».

وجد حبيبة أمام بوابة الفندق:

«اركبى من فضلك».

سألت:

«إلى أين»؟.

رد بابتسامة.

أخذت حبيبة نفسا عميقا وحاولت تخمين وجهتهم التالية. فوجئت بالكارتة تتوقف أمام البحيرة.

قال باهى:

«هيا».

اجتذبها سحر البحيرة، كانت الجبال تحيط بها فى هدوء، ككاتمات أسرار. الأحداث تمر، والجبال باقية فى رصانة وصمت .

ترى هل تسلق عبدالرحمن أحدها، ليخفى سرا ؟

قادها باهى فى هدوء إلى الجزيرة.

شعرت حبيبة أنها تدخل إحدى حكايات ألف ليلة وليلة. كانت حدائق النخيل تتشابك حولها إلى ما لا نهاية.

تمنت حبيبة أن تضم جدها بقوة فى هذه اللحظة، فهو يستحق أن يحلق داخل أسطورة.

كانت بحاجة إلى تلك التجربة، كاد الخيال يحتضر داخلها، وهى تراقبه مكتوفة بالأحداث والوقائع اليومية.

شعرت براحة وإثارة ، قالت متقمصة شخصية فاتنة خارجة من صفحات كتاب:

«هيا يا مولاى فلتقودنى إلى حيث تريد».

التفت باهى حوله فى قلق:

«ليس الآن... لم أتوقع أن يكون المكان مزدحما إلى هذه الدرجة».

أضاف ساهما:

«إنهم ينتظرون غروب الشمس، ونحن ننتظر قدومه».

كان ينظر فى ساعته من آن لآخر، يتلفت حوله فى انتظار ظهور شخص ما.

سؤاله لن يجدى ، فهى بصحبة الرجل الغامض.

توجهت بمفردها إلى النبع، جلست على حافته الحجرية وحدقت فى الطحالب الخضراء الطافية على سطح الماء. وكى تتسلى بدأت تفحص السور الحجرى، مر الوقت دون أن تجد شيئا قيما، ترك سائح مكانه، كان يتكلم الألمانية مع امرأة بدينة ويصيح schnell schnell.

فهمت حبيبة أنه يريد الاقتراب سريعا من مشهد الغروب، واصلت العمل، وبعد عدة أمتار استوقفتها خربشات نادت:

«باهى تعال ساعدنى لاتقف بعيدا».

حدق بعض السياح نحوها، ولكن سرعان ما انشغلوا بالغروب الوشيك.

قالت بانفعال:

«انظر انظر إلى الكتابة المحفورة هنا».

أجاب بعد دقائق:

«لا أرى شيئا».

اقتلعهما صوت له صرير باب صدئ:

«هل تأخرت»؟

التفتت لتجد عجوزا، ينظر بعينين غائرتين إلى لا شىء.

لحظات وبعد شرح مختصر من باهى عرفت أنها إحدى مفاجآت المرشد العبقرية، أتى بمعمر من أهل الواحة عاصر جدها. ليقص بعض الحكايات.

أمطرت حبيبة الوافد العجوز بأسئلة لم يسمع نصفها وأجاب أحيانا بكلمات قليلة.

كان مشغولا بمشهد الغروب المذهل. تأمله حتى النهاية.

مشى وتبعاه.

ليلة طويلة

(١)

هذه ليلة لن ينساها ثلاثتهم، حبيبة وباهى والعجوز حميدة، حميدة يتقدمهم برأس تزينها شعيرات خفيفة، ولحية تدلت إلى ركبتيه كجدائل كتان.

قادهما إلى إحدى الحدائق، أشعل مصباحا وجلس القرفصاء وسكت ثم بدأ الحكى كأنه تذكر الكلام فجأة. ليس هناك مثل ما بين الزوج وزوجه، إنه سر معقد هكذا كان الأمر بين عبدالرحمن وحنين، كانت زيجة غير مقصودة.

رجل وامرأة يهربان من أشباحهما، يتعانقان بقوة لإيقاف نزف جروح سابقة. كانت زيجة من أجل النسيان والتداوى.

أحيانا كانت تتملك حنين القسوة وتطلب من عبدالرحمن العزف على ناى تركه حبيبها السابق، فيعزف لها أنات طويلة بلا نهاية ولا أمل. أصابعه ترتجف كلما أمسك به، كأنه خنجر أو آلة تعذيب.

هناك لحظات حلوة شعرا بها، ولكن أثناء عزفه السيئ، كانت حنين تتذكر خسارتها وتحس أن قلبها تفتت ولم يعد قادرا على الحب.

أما عبدالرحمن فتلعب به النغمات المتنافرة وتزيد وطأة شيخوخته ومرضه. شجعته على الكتابة فوق جدران الكهوف:

«فلتترك أثراً»

يهمس:

«أريد أن أعد مقبرة».

تسأله فى جدية:

«أين»؟

يقول :

«مكان ما فى الجبل».

تقطب فيقول:

«ألا يعجبك النخيل».

كانت تتمنى لنفسها مقبرة بين الورود وأشجار النخيل.

تقول:

«اكتب الرسائل أولا».

يبتعد ويبكى:

تسأله:

«هل أنت نادم لزواجك منى».

يهز رأسه:

«إنه قدر».

كان يشعر معها، أنه يتذوق الحياة لأول مرة، أليس هذا قاسيا لشيخ أتى الواحة ليعد مقبرة.

تضحك وتغنى ويمر اليوم يتبعه يوم آخر.

يهرب منها إلى الكهوف. يكتب رسائل كثيرة إلى مجهول إرضاء لها.

(٢)

رفع حميدة رأسه وحدق فى الفضاء، كأنه يحاول لملمة أفضل ما فى كرياته. حرك أصابعه وغرسها فى رمال الحديقة. وتلفت حوله كأنه يحاول ادة بناء مشهد فريد. وقال بصوت خفيض:

«هنا أعد الشيخ حفلاً لعبدالرحمن».

سكت وتحركت شفتاه دون صوت كأنه عاجز عن اقتناص الكلمات ناسبة لوصف تخيلاته:

«هنا انبسطت السجاجيد المزخرفة برسومات فارسية رائعة، تصور سطورة ما، وهنا تناثرت الموائد المطعمة بالذهب والفضة والصدف، وهنا د الشيخ متكأ من المرمر من أجل عبدالرحمن، كان حفلا مختلفا عما دث عادة فى الواحة، اتسم بالفخامة، هناك صوانى لا تعد من الفواكه حلوى والمكسرات».

كان عبدالرحمن سعيدا بباقة من الزهور والنعناع أهداها إياه الشيخ.

حضرت الحفل كخادم أتنقل بأكواب الشاى الصغيرة بين الموائد.

لم يكن عبدالرحمن يتصور ما عرضه عليه الشيخ بعد ذلك. ليست مقبرة كما تمنى ولكن يد ابنته حنين.

بهت الطبيب العجوز وتمتم:

«أنا مريض».

لكن الصخب كان يغطى على كلماته ويأكلها.

هجم شيوخ الواحة عليه مهنئين.

تمتم:

«ولكنى أريد مقبرة».

لا أحد يسمعه.

البعض كان يحسده لأنه فاز بحنين أسطورة الواحة دون عناء، والبعض أشفق عليه.

كنت من الفريق الذى يحسده، وعقد العزم على مصاحبته منذ ذلك اليوم لتعلم الطب، لعلى أجنى المجد مثله ذات اليوم.

لمحت دموعه تتساقط، ولكن ابتسامته ظلت مشرقة فلم يلحظ أحد بكاءه.

كان الشيخ يقول بصوت جهورى:

«أنا فقط أنفذ رغبتها».

رفع عبد الرحمن رأسه غير مصدق أن تحبه حسناء كحنين رغم شيخوخته ومرضه .

فأكد له الشيخ:

«بالطبع رغبتها».

يبدو ساهما كأنما يستسلم لقوة أكبر منه:

«هيا هيا».

(٣)

كان عبد الرحمن مشغولا ذلك اليوم البعيد ، يفرك الجذور ويصب السوائل فى أوانى عديدة ، يمزجها بقدر ، ليعد مسكنا للآلام يخفف معاناته، همس:

«تريد أن تكون طبيبا إذن».

رفع حميدة رأسه والتفت إلى باهى وحبيبة كأنما يقاوم أشباحاً تطارده وتحاول التشويش عليه.

سألته حبيبة:

«بماذا أجبته»؟.

قال :

«لو أن الشمس نزلت إليك وسألتك سؤالا فماذا تفعلين ؟ كان عبد الرحمن بالنسبة إلى كالشمس ، نظرت إليه طويلا لأتأكد أنه يخاطبنى ، كنت مجرد خادم للشيخ ، كانت نظرته نافذة تخترق اللحم والعظام ، شعرت أمامه أنه لافكاك. سألته بدهشة:

«هل تقرأ الأفكار يا سيدى»

قال باهى:

«ولكنك أردت بالفعل أن تكون طبيبا وأن تتعلم منه ألم تقل هذا قبل ذلك».

شعر حميدة بالارتباك:

«نعم فكرت كما تمنى كل صعلوك فى الواحة أن يتزوج أميرة كحنين ، لكنى لم أتصور أن تنسل الأفكار من رأسى وتتحقق ».

أسندت حبيبة وجهها على كتف باهى وأنصتت كأنما تشاهد فيلما مذهلا .

تخبط حميدة بين الذكريات دقائق ثم قال:

«هزنى عبد الرحمن بقوة وقال لا يهمنى من تكون مادمت تملك حلما».

وجدت نفسى بين أكوام من الأوراق والقوارير ، أبحرت معه ما بين برديات كاهون وايبرز وادوين سميث ، ساعدته فى تحضير الدهانات والأدوية ، وحين شعر أننى تلميذه وكاتم أسراره ، أخرج لى ناياً كان يخفيه بين ملابسه وأعطانى إياه، وجدت عليه نقوشا كتلك المرسومة فوق معابد

الواحة القديمة ، توسل إلى أن أعلمه العزف، قال بخجل طفل:

«لست غريبا، أنا فقط أنفذ رغبتها».

كنت أعزف ببراعة ولكن شيئا ما فى الناى جعلنى أخرج نغمات شاذة كأنها عويل.

رسخ داخلى أن الناى مسحور.

سألت حبيبة فى لهفة:

«وماذا بعد ؟».

على الأرجح استرد عبد الرحمن الناى ، ولكنه ليس واثقا إن كان قد تخلص منه.

أدرك أن أستاذه يتعذب ، ولكن لماذا؟

انكمش وجه حميدة فى حيرة ، كان لا يتذكر ما حدث بعد ذلك. ولكن الناى اندس فى أحلامه ، مثل شوكة.

(٤)

تعدى الوقت منتصف الليل، والقمر بدرا ، انشغل حميدة بإعداد الشاى، وضع الأكواب وأغمض. كأنه يحاول السفر إلى مكان ما فى أعماقه. كان الجو يبعث قشعريرة فى جسده النحيل. هز يده يمينا وشمالا كأنما يطرد ما لا يعجبه من الماضى.

بادره باهى:

«ماذا بعد»؟

لم يتحرك حميدة ولم يرد.

لم تكن حبيبة متعجلة، كانت تتذوق اللحظة. وتشعر أنها تقضى وقتا فريداً.

حاول باهى مرة أخرى:

«هل نمت ياعم الحاج»؟

فتح عينيه فى بطء وبدا تائها. قال بصعوبة:

«أعطانى عبدالرحمن الصندوق».

مسح دمعة غافلته وسقطت.

«لقد أوصلت الصندوق إلى زوجته القاهرية مكية كما طلب».

نظر إليها كأنما ينتظر رداً.

تذكرت حبيبة جدتها والصندوق، لم يكن به سوى الخريطة التى أتت بها إلى الواحة:

«وصلنى وصلنى».

ارتشف حميدة من كوب الشاى وأعاد:

«أعطيت مكية الصندوق».

بدا على وجهه ألم شديد قال :

هطلت السيول أياماً طويلة على المدينة القديمة، تحطم بيت الشيخ والعديد من البيوت.

أناس كثيرة تجرى على غير هدى إلى خارج السور، يحملون نوافذ وأبواب بيوتهم القديمة. كان بينهم يسمع صوت حنين الشجى يوجه الجميع. وهيىء له أنه رأى عبدالرحمن يسير بخفة لا تناسب سنه، يده فى يدها. اقترب منه فرده:

«لا تبحث عنى».

كانت لحظة رهيبة.

حاول حميدة استعطافه كى يبقى، فهو لم يتعلم بعد ومازال بحاجة إليه فدونه سينطفئ الحلم. لم يسمعه، وتبع حنين، كانت هى حلمه.

انتهت السيول وتهدمت المدينة القديمة، اختفيا معاً، وحين عجزوا عن تفسير اللغز شك أهل الواحة فى وجود حنين وعبدالرحمن، وتساءلوا «هل حقا عاشا بينهما ذات يوم؟».

كانا مثل سراب تبدد دون أثر.

(٥)

أشرق الفجر، جلس زبير أمام الخيمة، أمامه الأوراق والألوان. حاول أن يرسم مشهد الشروق دون جدوى.

كانت أصابعه ترتجف من القلق، مرت ستة أيام دون أن يظهر فهد، ترى أين ذهب؟ هل ابتلعه الجبل؟

خفق قلبه بشدة، ابتعد عن الخيمة، الخواطر والصور كثيرة داخله، إذا لم يعد فهد هذا الصباح، فليس عليه سوى أن ينفذ ما قاله. عاد إلى الألوان والأوراق وجلس ينتظر.

فى الوقت نفسه كان حميدة ينهى حكاياته، كان يؤمن أن الحكايات مثل البراكين، لا يمكن كتمانها، ولا يوقفها النسيان. نسى الكثير، ولكنه عبر فجوات الذاكرة ببراعة.

لم تلحظ حبيبة أنه اتكأ على حكايات مقصوفة. ترك لها مهمة العثور على النهايات. ودعته سعيدة، كأنها تودع أسطورة.

سألها باهى فأجابت:

«إلى الفندق».

وافقها:

«وأنا أيضا بحاجة إلى النوم».

صعدت إلى غرفتها وفتحت اللاب توب، على صفحتها فى الفيس بوك، كتبت التالى :

بداخلى كلمات كثيرة وعائدة من جزيرة.

جاءتها التعليقات سريعا:

«الكلمات يجب أن تكتب».

«رومانسى» .

«حمد الله على السلامة».

أرادت أن تكتب الكلمات التى بداخلها ولكنها تراجعت، ستؤجل ذلك حتى تمسك الخيوط.

***

سلك زبير طرقا متعرجة، كان يلتفت حوله كل عدة خطوات، تصبب العرق على جبهته، توقف أمام النخلة المنشودة، حفر بضع دقائق، أخرج مظروفا جلدياً كبيراً، وضعه داخل ملابسه وترك المكان سريعا، وصل إلى المقهى وألقى بجسده الضخم فوق أول مقعد.

كان باهى هناك يرتشف الشاى، يفكر فى فهد والخريطة.

الجزء الثانى

محمد
يدخل المدينة السرية

تقول الخريطة عند بوابة مدينة الكنوز شجرة تطرح كل ألوان الفاكهة.

شعر فهد بدوار، إنه يفيق.

ما الذى حدث !!

استدرجوه إلى هناك، أقنعوه بعثورهم على كشف مهم، تركوه يدخل وحده. حصلوا على الدولارات واليوروهات والليرات والينات وعملات كثيرة معدنية وورقية، من بلدان لا يعرفها، أو قرأ اسمها ذات يوم وتجاوزها.

باعوه، هؤلاء الذين وثق بهم، ولم يعد يتذكر وجوههم كى لايكرههم.

أفاق فهد، إنه داخل مكان معتم كأنه كهف، توافد عليه ملثمون، يتكلمون ألسنة كثيرة.

سأله أحدهم بالفصحى:

«أين الخريطة»؟.

مرت أيام، ولم يتغير السؤال من آخرين إلا ليقولوا:

«أعطنا الخريطة».

رائحة عطرة تحيط به، وتشوش أفكاره.

يأخذه طيف امرأة تظهر وتختفى، بدوية حلوة تلتقط شيئا من هنا أو تقلب حساء هناك.

يتشاغل عنهم بها، يهمس كلما اقتربت:

«من أنت».

يتكلمون عن خريطة المرأة التى زارته بصحبة المرشد باهى منذ أيام، ما اسمها؟

اسم مشتق من الحب، يدندن فى رأسه اسمها ولا يلتقطه.

تتناثر الكلمات بلغات لا يعرفها.

يفكر.

«هل ترشد الخريطة إلى حل اللغز».

قبل مجيئه إلى هنا بيوم أو يومين أو بضع ساعات، حادث صديقه

سيجموند عبر الكمبيوتر بشأن الخريطة، أرسل إليه صورة منها بالفاكس.

كان سيجموند مفتونا بالغموض، يرى أن التماثيل والصور والمعابد والبيوت التى خلفها السابقون، مجرد رموز تشير إلى سر أعظم. ولهذا تأمل الشجرة المرسومة فى جانب من الخريطة بشغف، هناك فاكهة كثيرة تدلت من أغصانها، مثل أشجار الحكايات، تفاح.. رمان.. خوخ.. مشمش.. كريز وفاكهة غريبة ولا نهائية.

رأى فهد سيجموند يتحرك على شاشة الكمبيوتر فى مكتبته الكبيرة، يصعد بخفة بهلوان إلى أعلى رف، يمسك كتابا ضخما ويقلبه.

يقول بالألمانية:

«داس ايست أرابيس بوخ».

يفحص الكتاب بدقة، ويحكى له حكاية رجل تاه فى الصحراء قريبا من الواحة منذ قرون، فى عصر عمر بن عبدالعزيز، يدخل مدينة تذهله، ويأكل من شجرة تطرح بها فاكهة لا تعد.

يعود الرجل بروايته إلى عمر بن عبدالعزيز، يسأل الحاكم هنا وهناك، يؤكد أحد المصريين له أن الرجل دخل مدينة الكنوز.

يكلف عمر بن عبدالعزيز مجموعة من الرجال للبحث عن هذه المدينة، تطول الرحلة. ولا يجدون سوى صحراء.

يواجه سيجموند الكاميرا ويقول :

«تلك رواية الكاتب العربى بن الوردى».

سيجموند يصدق ما قرأه ويقول :

«الخيال.. بالخيال تصل إلى تلك المدينة وإلى أقصى منها».

ماذا يعنى سيجموند، هل يمكن أن توجد تلك المدينة؟!.

صديقه يؤمن بالبصيرة وهمس القلب، وقلبه يؤكد أن المدينة القريبة من الواحة، لا تظهر نفسها لكل عابر.

تتحرك البدوية الحلوة من حوله وتأخذه من أفكاره، يهمس:

«تعالى تعالى وأخبرينى ياحلوة من أنا وماذا أفعل هنا».

تبتسم في خجل وتتوارى.

يضيقون عليه الخناق:

«إذا لم تأت بالخريطة سنقتلك».

لايرتجف ويتابع البدوية تتحرك هنا وهناك. ويفكر أن سيجموند محق.

لقد رأى شجرة فاكهة عجيبة على الجدران فور دخوله الكهف..

يهمس فى أذن البدوية التى اقتربت:

«أين.. أين»؟.

تظاهر أمامهم أنه يستعيد وعيه ببطء، لكنه فى الحقيقة كان يحاول تذكر مكان الرسم، ربما لم ير أية شجرة وهيئ له.

أيقظته البدوية ذات مساء وقالت :

«أنا خائفة هناك بقعة ملونة تظهر وتختفى» .

«أين يا حلوتى»؟

تشير إلى الجانب المظلم من الكهف، تقول:

«بقعة مضيئة».

يتبعها، يسمعهم يقتربون فلا يتراجع.

لا يذكر كيف وصل إلى بغيته، واهتدى إلى المدينة السرية ولكنه فعل ذلك وحده. لم يعد يرى البدوية أو يسمعهم، فقط هو وظله دخلا المدينة.

كان الوقت ليلا.

حكايات المدينة

الحكاية الأولى

هناك ساحة كبيرة، لمح فهد من بعيد مصابيح كهربائية، ومشاعل بدائية وقناديل، خياماً منصوبة، وظلالاً تمشى فى تؤدة لم يتبين أصحابها، فاكهة داخل سلال على طول الطريق، ورذاذ ماء بارد ينبثق من نافورات بعضها على هيئة قردة وحيوانات وحشية وأخرى فى صورة فراشات وزهور. آلاف الصور تتلألأ عن بعد كالسراب. روائح كالبهارات، لا بل العشب الندى أو مياه البحر، أو مزيج من هذا كله.

ما هذا؟ أين هو؟

تعثر فى شىء لزج، وقبل أن ينتبه نهره صوت:

«كيف تجرؤ على إفساد قصتى»؟.

اقترب منه شبح، تبين تحت الأنوار أنه صبى، يلف جسده بإزار، تاركا صدره عاريا. انحنى فوق كومة الطين وأخذ يلملمها ويحاول إصلاحها.

تابعه فهد كان يريد الحديث معه، فهو أول شخص يلتقيه فى المدينة.

قوس الفتى ظهره أكثر وانكب فوق اللوح الطينى ممسكا قلم بوص.

وراح ينقش من اليمين إلى اليسار.

تهلل وجهه والتفت إلى فهد:

«يمكنك أن تمضى فى سلام، لم يطمس سوى سطر وقد أعدت كتابته».

ولكن فهد كان يتأمل اللوح الطينى وسأله:

«ماذا تكتب؟».

قال :

«أكتب أى شىء، كل ما يخطر لى، منذ أن تعلمت الكتابة والخيالات تطاردنى والصور والكلمات، فأكرسها كلها لأصف وطنى أور».

قاطعه فهد :

«أور؟».

قال الفتى ببساطة:

«نعم، أنا الكاتب أورينجا وابن الكاتب الأكبر لمدينة أور عروس المدن السومرية أنا من هناك من أور».

ثم التفت إليه:

«كيف حال وطنى، ألتقى بأناس هنا يقولون إن أور انتهت، يأتون بالبراهين وأعذرهم، علمتنى قراءة الألواح الطينية فى مكتبة أبى، أن الممالك تتهاوى مهما كانت قوتها، ولكنى مطمئن مادامت أور فى قلبى يمكننى بعثها ذات يوم».

انحنى فوق اللوح الطينى:

«سأنتظر الصباح وأجفف اللوح، بعدها يمكنك أن تقرأ القصة التى كتبتها».

سأل فهد:

«أين نحن»؟

هز أورينجا كتفيه:

«فى المدينة التى كانت تملأ أحلامى وتجعلنى شاردا».

«وكيف أتيت إلى هنا»؟

«نمت ذات يوم وأخذتنى الأحلام، كلما حاولت الاستيقاظ تأخذنى الأحلام أكثر حتى استسلمت لها».

جلس الصبى لينتظر شروق الشمس.

الحكاية الثانية

هناك ظل يقترب، اتجه نحو الصبى السامرى وهمس فى أذنيه ولكن أورينجا رده بإصرار:

«لا سأبقى هنا للكتابة».

جالت عينا الرجل فى حيرة، وأطلق أصواتاً كالابتهالات.

كان يردد:

«أى - تيمين - آنج - كى».

إنه شخص آخر وحكاية أخرى.

مضى الرجل فى طريقه وتبعه فهد، تجاوزا الساحة واخترقا الضباب. دخلا من أحد الأبواب.

هناك أكوام من الأحجار الكبيرة وبناء لم تكتمل معالمه. حاول الرجل رفع أحدها بواسطة رافعة كبيرة.

لم يفهم فهد ما يحدث ولكنه قال :

«هل يمكن أن أساعد»؟

استقر الحجر فوق آخر، التفت إليه الرجل واقترب بوجهه الممتد وعينيه المستديرتين:

«من أنت؟ وافد جديد إلى المدينة؟».

كانت هيئة الرجل أقرب إلى كهنة الماضى، على وجهه بصمات الجدية وجسده الفارع وخطواته الواسعة تنبئان بقوته.

أكمل:

«ولكنك عجوز وضئيل الجسم، كيف يمكن لمثلك أن يساعد فى حمل الأحجار وجلبها من أطراف المدينة».

سأل فهد:

«هل أنت هنا منذ زمن»؟».

بدا على وجه الرجل الذهول ولم يعرف كيف يجيب لم يفكر قبل ذلك فى

الزمن ولكنه تكلم أخيرا:

«أنا أحد خدام المعبد، معبد الإله مردوخ، لقد ساعدت فى بناء برج بابل ذى السقف الذهبى فى بابل العظيمة، والآن لأننى هنا ولا أعرف طريق العودة، فأنا أحاول بناءه من جديد».

بوغت فهد:

«وحدك»؟.

فرك الرجل كفيه الغليظتين:

«من آن إلى آخر أحاول إيجاد مساعدين، لقد ساعدنى الفتى السامرى ولكنه الآن يرفض ويفضل الكتابة عن فراشة ملونة يقول إنه تركها فى أور، هل تصدق هذا، يترك عملاً عظيماً من أجل حكاية فراشة؟».

تنهد وأكمل:

«إنه ضعف، أنا هنا بسبب الضعف أمام عينين ساحرتين، ولكنى لو خيرت بين البقاء فى أروقة برج بابل العظيم والاستسلام لهاتين العينين!».

جلس فوق أحد الأحجار وانحنى:

«ماذا ستختار»؟

قال الرجل بصوت مشروخ :

«لقد اخترت. كان ذلك يوم الاحتفال الكبير بالعام الجديد، يوم زواج الإله مردوخ من إلهة الأرض، إنه احتفال ضرورى فى بابل لضمان محاصيل وفيرة.

ملك بابل رجل صلب كالفولاذ اسمه نوبخذ نصر، يجلس فى عربته التى تشبه البرق يجرها أربعة خيول، يتكىء على مساند حريرية مزينة برسوم وخيوط ذهبية وفضية، العالم بين يديه، ولكنه كان مهموم القلب.

يقترب موكبه من بوابة عشتار بأبراجها الهائلة، ومعه الكهنة والآلهة فوق مراكب مزينة بالذهب والياقوت والفضة، كنت هناك فى مكان قريب من الملك. أنا كاتم أسراره، رجل المهمات الصعبة، بارع فى تشييد المبانى والطب،

والفلك، كنت أعرف ما يشغله، إنها زوجته أميهيا، قبل أن يتزوجها استشارنى وقرأت رسائل النجوم، وقلت له هناك عقبة فجو بابل لن يناسب الأميرة، إنها عاشقة للروابى والطبيعة، ولكن لا مشكلة تعوق الحب، بنى نوبخذ نصر لأميهيا حدائق متتالية، تبدو لمن يراها أنها معلقة فى الفضاء، وغرز فيها أشجار السنديان والبلوط والبرتقال والرمان والصفصاف والصنوبر وما لايعد من النباتات النادرة. ولكن أميهيا لم تشعر بالبهجة، كانت هذه الحدائق العجيبة، مجرد ذكرى باهتة لبلادها.

أنا كاتم أسرار الملك، ما أن تجاوزنا بوابة عشتار المزينة بثيران وتنانين، حتى نادانى وهمس فى أذنى، لا تنتظر حتى نهاية الاحتفال، اذهب إلى أميهيا فهى مريضة، أعطها دواء يعيد إليها البهجة، ستجدها أسفل أشجار البرتقال فى حدائقها.

تسللت خارج الركب ممتطيا جواداً، وكى أختصر الطريق صعدت فوق أسوار مدينة بابل، وبدت لى أكثر اتساعا، ورأيت من بعيد موكب الاحتفال يشق بابل، على الطريق الذى رصفه الملك ببلاط من رخام كتب أسفل كل منها اسمه، ورأيت النهر والحدائق التى بدت لى معلقة.

كنت أطبع بابل فى قلبى، لم أكن أشعر وقتها بما سوف يحدث، ولكن عرفت بعد ذلك أنها كانت جولة الوداع لمدينتى.

توسطت الشمس السماء، وأنا أبحث عن أميهيا، تنقلت من حديقة إلى أخرى صاعدا سلالم لا نهائية، حتى وجدت الملكة نائمة أسفل أشجار البرتقال، اقتربت وهمست باسمها. التفتت إلى بعينيها الشبيهتين بكواكب تشق بشعاعها القلب، همست لى بكلمات لم أعد أذكرها ودعتنى كى أصعد إلى عينيها، كنت لا أعرف كيف أفعل.

سلالم بللورية انسلت فجأة من العينين، صعدت وصعدت، أحسست بالتعب والشقاء متى يتوقف هذا؟

وصلت أخيرا، فأغمضت أهدابها الطويلة على، ووجدتنى هنا فى تلك

المدينة، أنا الآن فى عينى أميهيا، أريد أن أبنى البرج والحدائق، أن أستعيد اللحظة، كى أفهم ما حدث».

تأمل فهد تلال الحجارة لقد أنجز جزءاً ضئيلاً مما يتمنى، إنه عمل شاق لرجل واحد، هل لديه وقت.

شعر بالجوع لأول مرة منذ دخوله المدينة، أحضر فاكهة من سلال قريبة ناول رفيقه بعضها:

«ألن تأكل»؟

تقاسما ثمرات التوت والعنب والرمان والتفاح ولكنها كانت بمذاق مختلف ونكهة سحرية.

سأل فهد:

«لقد لمحت مصابيح كهربائية، هل تعرف الكهرباء».

يقول الرجل فى أسى :

«الوافدون كثر فى المدينة، كل يأتى بزمنه وأفكاره، لا أريد أن أستسلم لما أراه، أخشى من الدهشة والانبهار، أريد أن أبنى بابل، هى بالنسبة للبعض الماضى، وبالنسبة لى الحب، حين أروى قصصا عن بابل، لايصدقوننى يقولون أساطير وسحر بابلى، ويظنوننى ساحراً، إنهم لايعرفون بابل كما أعرفها».

شعر فهد بقوة الرجل الداخلية، قال لنفسه:

«لا أعرف بعد إن كان بإمكانى بناء شىء».

سأله الرجل:

«من أين أنت قادم؟».

«واحة مصرية».

رفع الرجل حاجبيه، قاده عبر الضباب إلى باب آخر، وتركه:

«لتمض وحدك إنها رحلتك».

الحكاية الثالثة

وجد فهد نفسه فى ممر ملتو، مشى طويلا ولم يجد شيئا. سمع صوتاً «لا تلم سوى نفسك».

اخترقته برودة ثم شعر بدفء، كانت الأرض منبسطة فى أول الأمر ثم صارت مليئة بالأشواك ثم انبسطت ثانية، متى ينتهى هذا لم يعد يحتمل.

وفجأة ملأ الضوء عينيه، لقد أشرق الصباح فى المدينة.

وجد نفسه أمام بناء يشبه بيت، طرق وطرق.

أتاه الصوت «من؟؟ هل تنتظر أن تنفتح الأبواب لك، افتحه بيدك»

فتح ودخل.

هناك رجل يرسم فوق الجدران رحلة صيد لأحد نبلاء مصر الفرعونية:

«ماذا تريد»؟

حدق فهد فى الرسم والرجل ولم يتكلم.

«ماذا تريد»؟

أجاب فهد بصوت كحفيف الأشجار.

ترك الرسام الفرشاة والألوان.

وقال:

«فهمت».

بدأ يحكى دون أن يلتفت إليه :

«لست رجلا كما تظن، أنا فقط أرتدى زى الرجال لقد عشت ثلاث حيوات، وأنا اليوم أستعيد حياتى الثانية كرسامة، تعمل فى بلاط الفرعونة حتشبسوت ولكن لا أحد يعرف أننى امرأة سوى المهندس سنموت، إنه يعرف أننى أرتدى الشعر المستعار وأقلد مشية الرجال ونبرات صوتهم ولكنى نادرا ما كنت أتكلم، كانت حياة مكرسة للألوان.

فى حياتى الأولى، كان قدرى أن أكون زوجة صياد فقير، كنت أخرج كل صباح كى أساعده فى رمى الشباك فى النهر. وكثيرا ما كنا نعود بلا صيد،

ولا نجد القوت. كنا فقراء كجيراننا وأقاربنا وأطفالنا يموتون جوعا، وكان الفرعون عجوزا جدا، إنه ابن إله وإله حكم طوال تسعين عاما، إنه مقدس لاشك فى ذلك ولكن هل يمكن لجائع أن يقدس شيئاً أو أحداً.

قادتنا أقدامنا الحافية إلى القصور والبيوت الكبيرة، حيث المرمر والذهب والفضة والياقوت، حيث الغلال لا تنفد، والثياب منسدلة فى بهاء والأسرة مليئة بالأغطية كى لا ينخر البرد عظام الأسياد، من جعلهم أسياداً، لقد جرح كثيرون بأظافرنا وسالت دماؤهم، وكانت لا تختلف عن دمائنا، لقد ملأ الرعب عيونهم لماذا تأخرنا؟، لو كنا نعلم أن الأسياد يخافون لانتزعنا منهم السيادة منذ زمن، ملأت بطنى بالطعام وارتديت ثوبا رائعا ذا أكمام واسعة، تقاسمنا الجواهر فيما بيننا وتشبثت بمرآة ومساحيق زينة، أنا امرأة قبل كل شىء، لا أذكر كيف انتهت حياتى الأولى ولكن من يكتب فى السجلات أننا لصوص غير منصف. سرقنا من؟ فرعون لايعرفون الجوع والبرد والفقر؟ من أى زمن أنت؟».

ارتبك فهد، لم تلحظ وعادت إلى قصتها:

«كان الفرعون عجوزا جدا وقت ثورتنا، كان ماكثا فى غرفته الملكية ينظر إلى ما يحدث حوله كهلاوس شيخوخة، كان أطول عمرا من كل الباقين حوله وفقد القدرة على الدهشة ورسخ داخله أنه مقدس كما أفهموه».

التفتت إلى فهد:

«لم نكن أبدا لصوصاً».

لم تنتظر رده واسترسلت :

«ولكن المرآة التى حصلت عليها، هزتنى إلى أبعد حد، بملمسها الناعم وسطحها البراق، بإطارها المرصع بجواهر لا تعد، لقد رأيت وجهى قبل ذلك فى مياه النهر ولكن ليس بهذا الوضوح، كان التعب باديا والخطوط تخترقه هنا وهناك، لم أكن كبيرة ولكنى بدوت مسنة، كان شعرى مشعثا أكثر مما تصورت !

شعرى الذى لم يعرف الدهانات، رأيت المعاناة والتعب والأرق، كنت امرأة ممزقة، ستقول ولماذا تمسكت بمرآة أرتك تعاستك، وجعلتك تتحسرين، وتكرهين السادة الذين داسوك بأقدامهم ألف مرة، إنها الرغبة فى الإمساك بالزمن وإدارته لصالحك، لقد صممت أن أزيح حزنى وضعت المساحيق على وجهى وعطرت رأسى وزينته بالأمشاط العاجية وزهور اللوتس، تغيرت من الخارج أما حزنى فظل، نظرت فى مرآتى ذات يوم وقلت لا أمل فى إصلاح ما أفسده طول الحرمان، أريد أن أعيش حياة أخرى وأجرب حظى من جديد وقد كان.

حظيت بحياة ثانية، كانت عائلتى قريبة من تياتيا والدة سنموت الرجل المدهش فى مملكة حتشبسوت، كنت طفلة خجولة، أنزوى فى ركن من شرفة منزلنا الكبير، أتطلع إلى البركة وأزهار اللوتس وأشجار الجميز، والسماء والنجوم، وأنقل كل هذا فوق أوراق البردى بقلمى البوص. كان والدى مفتونا بالألوان مثلى، يرسم مقابر النبلاء، ويكتب قصصهم على الجدران.

وذات يوم التقينا. كان سنموت فى ضيافة والدى. وجدته فوق رأسى مثل ضوء، كانت المرة الأولى التى ألتقى فيها برجل مثله، قبلا كنت أعرف سنموت فقط من الحكايات، حتى بدا لى شخصية خيالية.

أمسك رسوماتى واستغرق فى تأملها. شحب وجهه وتمتم ليست رسومات بل تسابيح.

كلمات قليلة ولكنها أعادت تشكيلى. كنت طفلة وحيدة، خجلى، خائفة من الخطأ والعقاب، جعلتنى كلماته موهوبة وذات شأن.

لقد بذر داخلى الطموح. لم أنم ليلتها. صرت أسأل هل يمكن أن أرسم فوق المقابر مثل والدى. كان حلمى يكبر كل يوم، يضغط على أعماقى، ويؤلمنى. كانت حياتى هادئة من قبل، بلغت الرابعة عشرة وأستعد أن أكون عروساً لشاب جميل يشرف على صوامع الغلال، وقد أغدو أما خلال عام أو عامين، سأزف إليه فى شهر توت، وقت فيضان النهر.

كان هذا قبل لقائى بسنموت حلما جميلا ولكنه تحول إلى كابوس. صرت أحلم بشىء واحد أن أغدو رسامة كبيرة، أن تصمد رسوماتى قروناً طويلة، أن تصير مصدر فخرى فى العالم الآخر، كانت رغبة تملأ قلبى.

لم أجرؤ على مخاطبة أحد بأفكارى السرية، البعيدة والحارقة كقرص الشمس.

تزوجت وعشت سنوات وتصورت أننى نسيت. والتقيت به مرة أخرى، لقاء غير مرتب أعدته السماء، لا أذكر أين ولا كيف. كان سنموت لطيفا متأنقا كعادته. ذكرته بكلماته التى مرت عليها أعوام، كلمته عن جفاف قلبى وحياتى.

ولكنه لم يذكر الرسم ولا الكلمات، قال لى إننى جميلة كالقرنفلة، كيف يمكن أن أحتمل أكثر.

همست فى أحلامى:

«سنموت أنت رجل حياتى».

افترقنا، شعرت بتعاسة، وتمنيت الحرية.

مات زوجى بعد ثلاث ليال قمرية، هل قتلته؟ ربما، كان حبى لسنموت أكبر من تعاليم البرديات.

رسمت ورسمت حتى احترقت يداى، حملت الأوراق إليه. تأملها سريعا، ستكونين رسامة، أقصد رساماً، لابد أن تتخفى فى زى رجل، لا يجب أن تراك حتشبسوت فاتنة، أطعته على الفور كنت على وشك الإمساك بحلمى ولم أستطع الابتعاد.

رأت حتشبسوت أحد رسوماتى على جدران قصرها. طلبت لقائى. شعرت أمامها بالضآلة. مدحتنى، كانت تظن أننى رجل، لم تكتشف ملامح أنوثتى، كيف؟ أحسست بالغيظ.

ربما فعلت وتجاهلت ذلك، كأنها تقول من أنت؟ حتى لو كنت فاتنة؟ أنا ابنة الإله آمون، أنا مقدسة، أنت مجرد امرأة فى مملكتى.

قالت لى : ستسافر أيها الرسام إلى بلاد بونت مع آخرين. لم تتعرف على حقيقتى؟ أم تسخر منى وتلعب بى؟

اقترب سنموت من مجلسها، تحول صوتها إلى النعومة، أكلتنى الغيرة، من أنا كى يحبنى سنموت؟

كانت الرحلة إلى بلاد بونت دواء أحتاجه، كى أنسى. أبحرنا إلى بلاد الإله والبخور، حيث تنزل الأمطار التى تمد النيل العظيم بالماء. خمس سفن ومائتى رجل وأحلام لانهائية تداعب كلاً منا.

كان يقودنا مستشار الملكة نحسى، رجل قوى، ذكى، لكنه لا شىء إلى جوار سنموت. كان حبى يجعلنى شبه عمياء، لا أرى سواه لا عيوب أو نقص فيه. كنت فى السفينة التى ينزل فيها نحسى. تفاديت مجلسه بقدر المستطاع.

مازال بى خجل الماضى، تحديت وغيرت قدرى ولكن هناك بصمات ظلت عالقة بى، كالخوف، الإحساس بالضعف وحقيقتى.

لدى موهبة فذة فى خلط الألوان وتحويلها إلى صور ولكنى لست قوية.

أغار حين تحصل أخرى على الرجل الذى أحب.

كنت أفكر فى كل هذا وأنا أنظر إلى البحر والأمواج، سقطت دموعى، واخترقنى صوت:

«لماذا تبكى هل أنت امرأة»؟.

كان الوقت ليلا، النجوم ترسل أشعة خافتة، لم أتبين ملامح المتكلم، انخرط فى البكاء إلى جوارى بعض الوقت ثم انصرف.

حاولت أن أعرف رفيقى بعد ذلك دون جدوى.

وصلنا إلى بلاد بونت وعلا صوت نحسى بين الصفوف، هالنى أنه يشبه صوت رفيق الليل، لا... لا يمكن لرجل قوى أن يبكى، بدأنا النزول. تلاقت أعيننا، لمحت ابتسامة وخجلاً فى نظراته، ماذا أراد أن يقول؟، لا أدرى.

بدأت مهمتى، لابد أن أنتبه وأرقب كل شىء حولى بدقة، سأرسم مشاهد

من الرحلة فى المعبد الكبير الذى يبنيه سنموت للملكة، تقدم باحو ملك بلاد بونت فى كبرياء وبجواره الملكة. كانت بدينة جدا.

عرضنا هدايانا: الأساور، العقود، الأسلحة، أعطيته خلسة رسومات لى أعجبته. لن أسجل تلك الواقعة على جدران المعبد.

كان باحو شديد الذكاء. بدا أنه يعرف سرى ولن يفشيه. كان كريما، أعطانا البخور، الصمغ، الذهب، الفضة، العاج، جلود الفهود، العصى الأبنوسية، العطور، زرافات، فهود، خصنى بقرد صغير.

تذكرته دائما. رسمته شامخا فى معبد الملكة.

العمل فى معبد هائل كهذا بناه حبيبى من أجل امرأة أخرى أشعلنى. لا تطفىء نارى الألوان ولا ذكريات بلاد بونت الرطبة ولا تأكيدات سنموت بأنه يحبنى. ما فائدة أن يحبنى وتحظى به أخرى. تمنيت أن أنال حياة ثالثة أكون فيها ملكة وقد كان.

كانت بداية حياتى الثالثة مبشرة، أسمونى تاوسرت ومعناه الأرض القوية، سأكون امرأة استثنائية، تزوجت من فرعون وصرت وصية على آخر، ثم كان دورى وفرصتى التى لم أضيعها وجلست على العرش. صرت مقدسة كباقى الفراعين.

حينذاك انتابتنى الهواجس، وطاردتنى صور من حياتى الأولى وحياتى الثانية، ماذا لو عرف الناس، خاصة ساكنى الأكواخ والجوعى، الذين يسترون أجسادهم بالأسمال، ماذا لو أدركوا فجأة أننى لست مقدسة كما صورنى الكهنة، أننى مجرد امرأة من لحم ودم، كنت أتلصص على المشردين فى مملكتى من فوق مركبة مزينة بالجواهر يقودها فرسان أشداء، فلا أجدهم.

سألت من حولى، الوزراء، المستشارين، نفوا وجودهم، وأكدوا أن مملكتى بلا فقر أو بؤس أو تعاسة.

ذكرى حياتى الأولى كانت تؤكد غير ذلك وصوت داخلى قال أيتها

المقدسة استيقظى الآن قبل فوات الأوان.

وكانت ذكريات حياتى الثانية مثل شوكة، كلما تقرب إلىّ أحدهم، أتساءل هل يحبنى أم يطيع لأننى المقدسة، هل يلتقى بامرأة متخفية فى زى رجل سرا ويغازلها. إنهم يدينون لى، يتملقوننى ليل نهار، هل ولاؤهم حقيقى؟

ما فائدة أن أحصل على الحب بالسلطة والنفوذ، إنه حب محاصر. أنا تاوسرت يتفنن الصناع لإرضائى. يبتكرون لى الجواهر.

بالأمس أحضر أحدهم كأساً ذهبية نقش عليها اسمى، تأملت الكأس والاسم فى دهشة - إنها تحفة، هل كان صانعها سيكلف نفسه العناء لو لم أكن ملكة، هل صنعها بحب أم لامرأة ذات سلطان ومقدسة كإلهة.

أنا تاوسرت لم يعد لاسمى معنى والجميع يتآمرون على العرش. أنا خائفة ليل نهار وهاجس داخلى يلح أيتها المقدسة اهربى قبل فوات الأوان.

ذات يوم كنت أتنزه على شاطىء النيل. وجدت عجوزا بجوارها شبكة صيد، كأنها تنتظر معجزة. اقتربت منها وسألتها هل أنت سعيدة يا أمى، هزت رأسها هل تنفى أم تؤكد، لم أعرف.

لم أخبرها أننى المقدسة. كنت أريد التحرر من قيودى، أمسكت الشبكة، وقذفت بها فى النهر، وبعد لحظات اهتزت فجذبتها فى سعادة طفلة. صحت «سمكة سمكة».

جذبتنى واستسلمت، أريد أن ينتهى قلقى وشعورى بالخطر وهواجسى، فكرت فى مدينة لاتشبهها مدينة. هذه قصتى وهكذا جئت إلى هنا.

ساد الصمت.

قالت :

«تريد أن تبقى»؟

نظر فهد نحو الأفق ولم يرد.

قالت :

«اتبعنى».

قادته عبر دهليز، صعدت سلماً، قالت:

«هنا يمكن أن تبقى».

وحده لأول مرة منذ وصوله المدينة، هجمت عليه الأفكار، كانت الغرفة مظلمة، اكتشف معه ولاعة سجائر تعمل بكفاءة، أشعلها.

كانت الرسوم تغطى الجدران، كأنه فى أحد المعابد المصرية القديمة. حاول قراءة المكتوب كعالم مصريات متمكن، كانت الرموز تخفت فى ذاكرته، ويحاول استعادتها بصعوبة.

قرص الشمس الهائل، يشع تحت نبت (السماء). رمز الحياة (عنكخ) تخرج منه يدان، تمسكان قرص الشمس الملتهب.

شعر فهد بالسخونة تسرى فى جسده، قرأ وقرأ، إنه مقطع من بردية آنى كاتب القرابين المقدسة فى مصر الفرعونية، لقد رآها مرارا فى المتحف البريطانى.

كان يعرف قصة البردية التى هربها أحد الأثريين الإنجليز من مصر إلى بريطانيا فى نهاية القرن التاسع عشر.

كاد يسترسل، ولكن التعب أنهكه، أغمض عينيه، واستسلم للنوم، لا يدرى كم مر من الوقت، ولكنه استيقظ فزعا، على صوت يتحدث المصرية القديمة.

فتح عينيه، كانت الغرفة نصف مضاءة، من أين يأتى الضوء؟ لم يعرف، استمر الصوت، إنها صلاة «وبك اخضرت الأرضين..».

الصوت قادم من الرسم فوق الحائط المقابل وكان لرجل يرفع يديه فى خشوع، تردد الصوت أكثر من مرة:

«وبك اخضرت الأرضين...».

مسح الرجل وجهه بكفيه، ثم التفت إلى فهد:

«تعال وساعدنى لنعد مائدة القرابين»،

ارتبك فهد وفرك عينيه بشدة، كرر الرجل:

«عندى لحم كما ترى ولكنى أحتاج إلى خبز وفطائر وفاكهة وزهور لوتس».

علت وجهه غلالة حزن وأكمل:

«رسمت كى أبتهل ولم تكتب سوى جملة واحدة من الترنيمة التى على أن أرددها وها أنا أقولها ليل نهار، رسمت المائدة واللحم ولم ترسم باقى الأشياء».

اتخذ وضعه السابق وأخذ يردد:

«وبك اخضرت الأرضين».

ثم حل الصمت وانطفأ النور وأكمل فهد نومه فى هدوء. حلم بالواحة وبخادمه زبير، هل سينفذ تعليماته، هل سيتمكن من إعادة الخريطة إلى صاحبتها.

دفن الخريطة أسفل نخلة حددها له بدقة. ذهبا معاً إلى المكان أكثر من مرة:

«إذا لم أعد، احفر هنا، وأخرج المظروف الجلدى وأعطه للمرأة التى تسكن الفندق، تذكر اسمها، حبيبة حبيبة».

ولكن زبير بكى وانسابت دموعه غزيرة. وبدا على وجهه الخوف إنه نصف أبله، أو يبدو كذلك، ولكن فهد كان واثقا أنه يعرف أكثر مما يتصوره الآخرون.

تشبث به كقط أليف وحاول منعه من الذهاب:

«إنهم يخدعونك، انظر إلى عيونهم وأنت تعرف».

طمأنه فهد:

«أنت تبالغ، لقد دلونى من قبل على أشياء مفيدة».

حلم به طوال الليل حتى بزغ الفجر. استيقظ، تناول بعض الفاكهة وقرر أن يكمل رحلته فى المدينة. نظر إلى الرسومات فوق الجدران، اقترب من الرجل الذى كف عن إصدار الأصوات الآن، وحياه.

نزل الدرج، وتجاوز الدهليز، فى ساحة البيت رأى امرأة ترتدى ثوبا من الكتان البديع، وتمسك بصولجان الملك.

التفتت إليه وقالت :

«اليوم أنا الفرعونة تاوسرت».

لم يلتفت إلى عينيها الخائفتين، انحنى أمامها فى تبجيل. وانصرف.

الحكاية الرابعة

سار فهد طويلا، هناك عطر خفيف يتسلل الهواء، وصوت خافت يردد أنشودة.

من أين يأتى؟

مر بمبانى ورموز تنتمى إلى مختلف العصور. مآذن وقباب قرطبية، أقواس وأعمدة رومانية، جسور حجرية وأخرى معلقة فى الهواء.

أين هو؟ أين يذهب الآن؟

قرر أن يتبع الصوت. مر بساحة تلو الأخرى، انحرف أخيرا فى زقاق ضيق.

صارت الانشودة أكثر وضوحا وعذوبة وحزنا.

إنها امرأة تغنى بلا انقطاع، تدفع بألمها فى كل أذن.

طرق الباب. فتحته سمراء ترتدى ثوبا مرقعا على الطراز الرومانى. خصلات شعرها السوداء تناثرت تحت شال أبيض.

بادرته قائلة :

«سمعت أغنيتى؟».

الأغنية آلمته وحركت داخله شجناً ولكنه لم يتكلم.

قالت :

«أتت بك إلى هنا؟ تجاوزت المعابد، البيوت، الأبراج الشاهقة، الزخارف، كى تأتى إلى بيتى البسيط، الذى يشبه مأساتى؟».

قاطنو المدينة عرضوا على بيوتاً أكبر وأوسع. قاطنو المدينة القادمون من ألف حضارة، المحتفظون فى قلوبهم بصور بلادهم التى تركوها. قالوا لى لماذا ترقعين ثوبك؟ انسجى ثوبا جديدا. ولكنه ثوبى الذى أتيت به من بيت لحم.

التفتت إليه:

«هل تعرف المدينة، ما أخبارها، هل مازالت تسبح فى بحار الدم؟».

إنها قادمة من زمن بعيد.

قال :

«مازال الدم ينزف».

سألت :

«هل مازال هيرود على قيد الحياة؟».

حرك فهد شفتيه، فهزت رأسها.

بدأت تحكى : «كنت أعيش مع زوجى، مزارع من بيت لحم، كانت المظالم تتكاثر حولنا والفقر شديد، كنا نحتضن طفلنا الرضيع كل ليلة، فى بيت يشبه بيتى هذا. كان هيرود ملكنا فى ذلك الوقت يحكم بالحديد والنار. وحوله شياطين تهمس فى أذنه وأعوان كالوحوش.

كنا ننتظر ميلاد ملكنا المخلص، الذى يعطف على الفقير ويطعم الجائع ويرفع الظلم. كنا نكتم المعاناة ولكنها حفرت خطوطا على وجهى وقوست ظهر زوجى الشاب. وذات يوم أتانى زوجى متهللا، وهمس فى أذنى بكلمات.

لقد حانت ساعة الخلاص، وما هى إلا خطوة واحدة أو أقل، ويولد.

ولكن تلك النبوءة التى كنا نتناقلها من أذن إلى أذن كسر ثمين، لم تكن كذلك، كان هيرود السفاح على علم بها. وشعر بأن عرشه يهدده طفل رضيع يولد فى المدينة التى يحكمها وقرر قتل كل رضيع.

تسللت السيوف أزقة بيت لحم، اقتحمت بيوتنا، اخترقت الأجساد الصغيرة وفصلت رؤوسها، ووأدت الحلم والأمل. آلاف الرضع سالت دماؤهم.

كنت أتنقل من زقاق إلى آخر، طفلى بين ذراعى، أريد النجاة به، السيوف تطاردنى وأسمع خطوات خلفى، وأسوار قصر هيرود ذى الزخارف والزينة الملونة، تهمس لى ولكل الحالمين بالنجاة مثلى، إننا ضعفاء، خلقنا لتدوسنا أقدامه، ليتمدد جسده فوق الذهب ونلعق التراب، ليمتد ملكه ويعيش فى سعادة، ونحرم نحن من ضحكات أطفالنا.

أقدامى كانت غارقة فى الدم والأشلاء. كنت أشعر بالإنهاك، على وشك الاستسلام والسقوط، وفجأة رأيت ضوءا باهرا وسمعت صوتا، قاومى حتى تصلى إلى هذا الضوء.

قاومت.. قاومت، تمزق ثوبى، سالت دمائى ولكن قوة كانت تدفعنى باتجاه الضوء. ووصلت إلى هذه المدينة، وطفلى بين ذراعى، لم يكن حياء إنها إرادة الله. تلك مقبرته. قادته إلى منتصف حجرتها، حيث ارتفع شاهد قبر صغير، أشارت إلى بساط افترشته، هنا أنام وأغنى وآكل، هنا حياتى. أهل المدينة، دونوا بعض الكلمات من أجل صغيرى فوق الشاهد.

حاول فهد قراءة المكتوب بلغات مختلفة وحروف وصور متداخلة.

شرحت له المرأة، كأن الكلمات نقلت من لوح مخبأ فى قلبها، كتبوا هنا يرقد طفل مات قبل أن تختار له أمه اسما، من بين مآثره فى الأيام القليلة التى عاشها، إطلاق ضحكات مدهشة ولكنه بسبب طاغية اسمه هيرود، كف عن الضحك، لم يعرف هذا الطفل الكلام، لم يتعلم ولا كلمة، ولكن صمته كان مؤثرا.

التفتت المرأة إلى فهد:

«مازال يسيل الدم؟ متى يعم السلام؟».

تردد فهد ماذا يقول:

«لابد أن يعم السلام فى وقت ما».

لم تفهم معنى الوقت.

***

خرج فهد من عند المرأة. دون مقاطع من أغنيتها فى ورقة صغيرة.

كان اللحن يتردد داخله. تذكر نايه، لم يعزف منذ سنوات.

كانت أغنية المرأة تشبه ألحانه الأولى، تتدفق فى عفوية، تلسع القلب. تهمس أن الحياة دون نغم صادق، مشتعل لا معنى لها.

توارت ألحانه حين دخل دنيا الحسابات والتخطيط، حين بدأ يدقق فى عيون مستمعيه، ليسأل هل يرضيهم عزفه؟

كان حرا فى البداية والعزف هبة إلهية، كلما كبر كانت حساباته للمكسب والخسارة تتحكم فيه. هو أثرى عالمى وموظف مهم بالدولة.

تحكمت فيه عقلية الموظف. لم يطلق ألحانه من الناى بلا رادع فى الحفلات المليئة برجال يخدمون الدولة مثله، وآخرين يراقبون هؤلاء الذين يخدمون الدولة ويكتبون التقارير. كانوا دائما ما يطلبون منه العزف، وكان يستجيب لأن امتلاكه موهبة، مثل قرنفلة تزين عروة جاكت المسئول الكبير.

إسعاد مستمعيه، ضرورة مهنية ووسيلة للكسب. كان يختار مقطوعات لبتهوفن وموتسارت وباخ، أما الألحان التى ارتجلها فى الماضى، التى تثير الحيرة والدهشة غير مضمونة فى تلك الاحتفالات.

كان وصوله إلى تلك المدينة، محاولة لإنقاذ روحه وموهبته من التعفن، الآن عادت إليه نفسه، ترى هل فات الوقت؟

سار من شارع إلى شارع، كان ساهما ومأخوذا بغرابة المدينة التى دخلها مصادفة. مر به شاب يرتدى تى شرت ملطخاً بالدماء ويمسك علم مصر.

لم يلمح وجهه كان يهرول خائفا إلى الناحية الأخرى من المدينة، ويهتف: «الشعب يريد إسقاط النظام».

كان صوته يتكسر ويهذى بكلمات أخرى، لم ينجح فهد فى التقاطها، كأنما يحاول الهرب من كابوس.

قرر فهد أن يلحق به، إنه مصرى دون شك، تشى ملابسه وهيئته أنه قادم من زمن حديث.

جرى الفتى بقوة، كأنما يحاول الإفلات من ألم.

مر الوقت وفهد يلاحقه ويناديه، والفتى ينزلق كالزئبق بعيدا .

حكاية الخامسة

توقف فهد، كان تعبا، يشعر بالوحدة، استند إلى شجرة وغفا لحظات. الظلال تحيط به، وظلت كذلك بعد أن أفاق. استجمع شجاعته واقترب. انثنى أحد الظلال، وناداه، ذكره صوته بخيوط العنكبوت، صوت واهن:

«لا تخش شيئا، أنا مجرد حطاب».

سدد نحوه أنفه المدبب:

«نعم أنا مجرد حطاب منحنى القدر هذا».

فرد الرجل لفافة بردى أمامه:

«إنه كتاب وجدته داخل أحد الكهوف، أخذته لأبيعه».

كان فهد مرهقا ويود الانصراف. لم يستطع. هناك قصة تنسج تفاصيلها حوله، ظلال أخرى فى المدينة تناديه وتعده بالدهشة:

«فى وقت لاحق».

ولكن الرجل واصل روايته:

«كان مخبأ بعناية وشعرت أنه يساوى ثروة، سألت فى حذر وعرفت أين أجد مشترياً. توجهت إلى الاسكندرية، بالقرب من السيرابيون حيث آلاف الكتب محفوظة بعناية. دلونى على المرأة التى ترتدى عباءة وتحيط نفسها بالعديد من الطلاب.

رفع فهد كفيه:

«فى وقت لاحق، سمعت ما يكفى، لن أنصت إلى قصة أخرى».

فكر الرجل قليلا، بدا أنه غير متيقن، حاول فهد أن يفلت من حبائل القصة الجديدة، وحاول صاحبها عدم روايتها ولكن دون جدوى. فانفلتت الكلمات حارة من بين شفتيه :

«لم أهتم بالزمن قط، كنت أقضى معظم وقتى فى جمع الحطب والغناء. ولكنى بدأت أفكر فى المال الذى سوف أجنيه ثمناً للكتاب، وتفجرت لدى مشاعر جديدة. كان قلبى يخفق فى عنف ورأسى لا يكف عن تخيل صور لم

تخطر لى من قبل. صرت كسولا وبدت لى حياة الحطاب شاقة جدا، وجحيما لايحتمل. كنت أحلم كل ليلة بالدرخمات، توقظنى شخللتها، رأيت قليلا من النقود فى حياتى، كنت مشغولا فى السابق ولا تهمنى الأحداث ولكن بعد عثورى على الكتاب الثمين، صرت أكثر تلصصا على حياة الآخرين، العربات الفارهة، العطور، الملابس، الأطعمة وشعرت بنقص شديد.

كنت حطاباً ينهكه التعب ولا يلتفت إلى المتع. كانت شربة ماء بارد تبهجنى، وفجأة اشتعلت البراكين داخلى. رأيت ما لم أكن أرى، حلمت بما لم أكن أحلم. انقلبت الحياة إلى كابوس. لم تعد حياتى ترضينى.

كان المخرج الوحيد أن أبيع الكتاب وأحصل على المال.

قالوا له تذكر هذا الاسم، ردده كثيرا كى لا تنساه. ظل أياما لاينطق سواه «هيباتيا ابنة ثيون... هيباتيا ابنة ثيون» حتى حفظه.

لا يذكر من دله عليها وأقنعه أنها ستقدر ماعنده.

وصل إلى الاسكندرية، بعد رحلة شاقة، فوق قارب صغير. كان الكل يهمس باسمها فى شوارع المدينة. وجدها فوق سلم معبد السيرابيون، ومن حولها الطلاب والمريدون.

كانت تلقى أبياتاً شعرية، وكان صوتها والشعر ألوان طيف.

الأبيات تحكى عن بطل اسمه ميلانوس ذهب إلى جزيرة فاروس.

تقول :

«الاسكندر سمع الأبيات وقرر أن يحول فاروس إلى الاسكندرية».

تتنقل بين الحكايات.

أحس الحطاب بشىء غامض ورغبة فى الاستماع، قاوم، همس بصعوبة:

«سيدتى».

التفتت نحوه فوجد نفسه فى مواجهة الشمس.

تلعثم:

«سيدتى جئت...»

ناولها البردية ففهمت.

قرأت أسطر قليلة ثم قالت:

«كم تريد»؟

لا يعرف كيف يحصى النقود ولا كيف يطلبها.

قالت :

«الكتاب لايقدر بثمن».

ناولته كيسين ثقيلين وقالت:

«أيكفيان».

إنهما ثقيلان وتعدانه بالحياة التى تلصص عليها.. التفت ليمضى، قالت:

«ألن تبقى لتعرف ما بالكتاب؟».

لايعرف ماذا يقول لهذا الملاك.

سمعوا جلبة. رأوا عند مدخل المعبد رجلاً غاضباً ومعه جمع مثله. عرف من طلاب السيدة أن الرجل ممثل دين الامبراطورية الجديد فى الاسكندرية.

قرأ الرجل بنبرة انتصار، مرسوماً امبراطورياً، سيقضى على المعبد ويدمره، سيحول المعبود سيرابيس إلى تراب. سينشر نور الدين الجديد ويقضى على الوثنية. رأى الحطاب وسمع ونسى. ابتعد بأقصى سرعة.

ابتعد سنوات غرق فى الذهب والفضة والجواهر والوسائد المطرزة والحلوى والفطائر والسرر المطعمة بالصدف والعاج، والعربات التى تجرها خيول صهباء. كل هذا وأكثر منه بثمن كتاب واحد، لماذا؟؟؟

كان يطرد هذا السؤال كلما مر بخاطره، كما يفعل مع ذبابة.

السؤال يعود أقوى وأشد:

«لماذا؟».

ثم تحول السؤال إلى لوم ذات صباح.

«لماذا تركت المرأة قبل أن تخبرك بما فى الكتاب؟».

كان خائفا من الرجل الذى هجم على المعبد، وكان خائفا من عينى المرأة

وصوتها وإيماءتها وحكاياتها الساحرة أكثر من الرجل، وكان خائفا من كتاب يساوى تلك الأموال الطائلة، لابد أنه سيقلب حياة كل من يقرأه، أكثر من الرجل والمرأة. وكان خائفا من نفسه، لأن حياته كانت ضيقة دون أسئلة ثم تفجرت الأسئلة داخله، صارت لا نهائية، أكبر من أن يستوعبها عمر واحد. قرر بعد سنوات أن يعود إلى هيباتيا ويسألها عما فى الكتاب، لأن خوفه من جهله كان أشد من كل المخاوف الأخرى.

استقبلته هيباتيا ببشاشة، كانت تتجول فى شوارع الاسكندرية مع مريديها.

قالت :

«كنت أنتظر قدومك».

مروا أمام المكان الذى كان ذات يوم معبد السيرابيون، لقد تحول إلى مكان آخر، يناسب دين الامبراطورية الجديد.

قالت:

«سأعود إلى منزلى الآن وغدا سنلتقى».

ينصت فهد والحطاب يواصل :

تركتها وتوجهت إلى الشاطىء، وجدت أطفالاً يسبحون وامرأة تبلل قدميها وصياد يلقى بشباكه وعجوز ينظر إلى لا شىء وأمواج تتلاطم. البحر والناس كما هم ولكنى تغيرت.

العيون تحسدنى لأن لى هيئة ثرى ولا ترى فراغ قلبى.

الأمل فى الكتاب والخوف منه.

لا أعرف ما ينتظرنى فى الغد، توغلت قليلا فى البحر، تركت نفسى للأمواج. ترى هل سيذكرنى البحر، هل ستظل الاسكندرية كما هى بعد ألف عام.

كنت أريد أن أظل عالقا بالذاكرة، وأشعر أن شيئا كبيرا سيحدث، كنت أشعر بالخطر والخوف.

غدا سألتقى بهيباتيا وستكشف لى سر الكتاب، قد أفقد عقلى وقد أغدو مهموما مثلها ومثل كثير من طلابها. سأرى حياتى بصورة مختلفة، قد أكره أخطائى وأبدلها أو أستسلم لها كقدر، ولكن لا يمكن أن أتراجع.

لم أنم ليلتى. وقفت أمام بيتها فى انتظار خروجها.

مرت الساعات بطيئة، توافد مريدو هيباتيا وطلابها.

الكل يترقب شروقها. خرجت عند الظهيرة مرتدية عباءة قرمزية.

لمحت الكتاب فى يدها، اقتربت منى وناولتنى إياه، قالت:

«أهذا كتابك؟».

شعرت بالدم يتدفق إلى رأسى، لم أكن أعرف كيف أجيب، الكتب المغلقة تتشابه.

مدت يدها إلى:

«لنقرأه معاً».

مددت يدى ولكن...

نظر الرجل إلى فهد، وعكست ملامحه الرعب.

لايستطيع استعادة ماحدث بالتفصيل، لأنه مازال لايصدق حدوثه. دفعه رجال لهم أجساد وحوش بعيدا. غرزوا خناجرهم وسيوفهم فى جسد هيباتيا. لم تصرخ، ماتت مبتسمة، سالت دماؤها وبللت الكتاب.

التفتوا إلينا بخناجرهم، جرينا بعيدا، وجدتنى فى أحد أزقة الاسكندرية.

أين أختبىء؟ لا أدرى. طرقت أحد الأبواب، انفتح. مشيت طويلا، ووجدتنى أصل إلى هذه المدينة.

التفت إلى فهد:

«وأنت ما هى حكايتك؟».

ابتسم فهد وقال :

«لم أعرف نهايتها بعد».

استغرق فهد فى تفكير عميق، لقد كانت حياته مثل نهر تجمد، هذه

المدينة ترده إلى طبيعته، وتحرر روحه. كان هذا أكبر من احتمال شيخوخته. يخطر له أن يهرب، سأل:

«كيف الخروج؟».

رفع الحطاب رأسه فى دهشة:

«أى خروج».

استغرقا فى نقاش حاد:

«لماذا تود الخروج ألا تعجبك المدينة؟».

«لم أختر المدينة وأنت لماذا تبقى؟ لتروى حكايتك؟».

«لا أود الخروج لقد مر زمنى، وربما مر زمنك، ما تحسبه يوما هنا قد لا يكون كذلك».

أنهكهما النقاش، تركه فهد، أراد رفيقه أن يقول كلمة، ولم ينصت إليه.

الحكاية السادسة

كلما تقدم خطوة، تتفتت أفكاره أكثر. تحجرت طوال عقود. وصنعت جدارا بينه وبين العالم.

كان يشعر بالدهشة من نفسه، ماذا يحدث؟ كأنه ولد من جديد، ليغنى أغانى طفولته، ويحلم أحلامه المستحيلة.

كان خائفا، إلى أين تأخذه المدينة؟ وهل يحتمل؟، أليس الأفضل أن يفتش عن مخرج؟.

واصل المشى ساعات. رأى قلعة هائلة فوق أحد تلال المدينة، اقترب. يمكنه أن يبيت ليلته هناك ويفكر بهدوء.

كانت المشاعل فى كل مكان تجاوز دهاليز وباحات وغرفاً مغلقة. وصل أخيرا إلى ساحة كبيرة. كان هواء الليل منعشا، رفع رأسه وفوجىء بالنجوم تبرق كجواهر صغيرة، وتناديه، بدأ يعد...

«واحد اثنان ثلاثة...».

قاطعه صوت:

«من سمح لك بعد نجومنا».

التفت فواجهه ظل:

«نجومكم من أنتم؟».

«لقد تبعناها من قرطاجنة إلى هنا».

آزره صوت رفيع:

«أنا وهو».

سبابة أشارت إلى الظل الأول.

اقترب الظلان. أحدهما لصبى داكن البشرة والآخر لفتاة حلوة.

ضحكت الفتاة وتبعها الفتى:

«يمكنك أن تبقى الليلة وتستمع إلى قصتنا».

يكمل الفتى:

«نعم نعم فلم نرو القصة منذ وقت طويل».

«هيا قولى».

«بل قل أنت».

ابتسما، تلاقت أعينهما، اتفقا أن يروى كل منهما القصة.

بدأ الفتى:

«أن تولد عبدا ليس معناه أنك تكتشف ذلك منذ اللحظة الأولى، فأبواك عبدان وأنت سلالة عبيد ولكنهما يحاولان أن يشعراك أنك حر ومدلل كأى طفل آخر، لا يجرؤان أن يعاملاك كعبد وأنت تضحك فى براءة، حتى السيد حين كان يلتقى بطفل من العبيد يبتسم ويداعبه، كأن براءته تذكره أنه بشر، لا سلعة تباع وتشترى.

تكتشف من أنت وما هو مصيرك بنفسك، كلما كبرت تزداد الأغلال حولك وتصير حركتك محدودة حين تعرف أنك عبد، لن تشعر بصدمة كبيرة، فما المشكلة أن يكون قدرك كقدر أبويك.

كان والداى يكدان طوال اليوم فى ضيعة السيد، يد خشنة ورأس منحن، وضحكات مسروقة لا أعرف سببها، واستسلام وهما يعدانى لحياة العبودية. الأمر يشبه سلسلة متصلة لا يمكن الفكاك منها، كانت أمى أحيانا تحكى لى عن جد حر عاش فى زمن بعيد جدا وقع فى الأسر إثر معركة، لماذا كانت تفعل ذلك بى؟ ما فائدة حكاياتها عن حرية سلالتنا المفقودة، هل يمكن استعادة الحرية يوما يا أمى؟ لم أجرؤ أن أسألها، ولكن السؤال ظل يتردد داخلى.

عرفت الطريق من ضيعة السيد إلى قرطاجنة، أحببت بيوتها العالية وأزقتها وصخب سوقها.

الضيعة التى عشت فيها كانت خارج المدينة، هكذا النبلاء، يحبون الخصوصية والابتعاد عن العامة. ولكن السلطة تستهويهم. كان سيدى واحدا من ثلاثين نبيلا يحكمون قرطاجنة ويجتمعون فى مبنى بديع بجوار

معبد أبوللو.

المبنيان مقامان فى سوق المدينة الصاخب، القريب من البحر. الناس من حوله يروحون، يجيئون، يضحكون، يهمسون وأحيانا يتشاجرون، هل كان السادة داخل المبنى البديع يصلهم ما يحدث، ويهتمون بنبض الناس وهم يخططون مستقبل قرطاجنة.

كان وجه سيدى لامعا وملابسه فاخرة، وحريصاً على غلق نوافذ عربته كى لا تزعجه روائح السوق وأصواته، كان وقورا محبا للهدوء.

أسرتنى قرطاجنة بسحرها، تنقلت بين أسوارها الثلاثة المنيعة، وأزقتها، وبيوتها العالية. كنت أقفز بين أسطح البيوت فى لذة وأشارك صبيان المدينة اللعب والضحك والطعام، أبهر أهلها بألعابى السحرية وقدرتى على التنبؤ، كان الوقت يمر بى، وأنسى لبرهة أننى عبد.

أعود إلى أبوىّ ولا تفارقنى اللحظات التى عشتها حرا. كان أبى يذكرنى أننى لست حرا وأن ما عشته كذبة لا أكثر.

تصمت أمى، ويبدو على ملامحها المتعبة أنها تتمنى لى مصيراً آخر، ولكن وجهها ينقبض فى خوف. ويعنفنى أبى، لست ملك نفسك، أنت ووقتك ملك للسيد.

لم أتوقف عن الذهاب إلى قرطاجنة. كنت بحاجة إلى أن أقفز وأصرخ وأضحك وأتكلم فى حرية.

توقف الفتى عن الحكى وبدأت الفتاة:

«كانت قرطاجنة بالنسبة لى بقعة مبهمة أراها من حديقة قصرنا».

أسأل مربيتى:

«ماذا يوجد هناك».

وكانت المربية تتطلع ناحية قرطاجنة وتقول :

«أين أين لا أرى إلا سرابا».

أنسى وأنشغل بألعاب كثيرة مبهجة، أغرق فى المرح.

ذات يوم تطلبت اللعبة الاختفاء. فكرت كثيرا، صممت أن أحيرها وأختبىء فى مكان لا يخطر لها على بال.

توجهت إلى غرف القصر الخلفية، التى لم أذهب إليها قبل ذلك. كان عالماً مختلفاً. زحام، وروائح كالبهارات، أغنيات، أصوات أقدام تخطو بلا نهاية، أوانى نحاسية تقرقع، زجاجات تفتح وتغلق، أفواه كثيرة تتحرك ولا تقول شيئا، أصحابها خائفون من الكلام، أو يشكون فى قدرتهم عليه.

اجتذبنى صوته (أشارت إلى الفتى) وهو يحكى عن قرطاجنة. كثيرون التفوا حوله، ولم يجرؤوا على مقاطعته.

وجدتنى داخل حكاياته، ونسيت سبب وجودى هناك. تخيلت الأفيال التى قال إنه امتطاها، الخيول التى أطعمها، البيوت التى حل فيها ضيفا، الناس الذين تكلم معهم.

بدت حياتى وألعابى أمام كل هذا مملة.

بدأ يدهشنا بألعاب سحرية عجيبة، ثم بدأ يقرأ طالع كل منهم بالنظر إلى الكف أو العينين، واتخذت مكانا فى صف العبيد اللانهائى. استمعت إلى كلماته إليهم، وكانت نبوءاته لا تتبدل، فهو يرى فى طالع كل منهم الحرية، لم أكن أفهم معنى الكلمة تماما، حان دورى وتوقعت أن يقول لى الكلمات نفسها، ولكنه توقف أمام كفى طويلا وقال :

«عجيب.. عجيب» !!

ثم بدا عليه الخوف. حاول الإفلات منى والاختفاء. أثار فضولى، فتبعته. وجدته متكورا فى ركن مظلم، عيناه حمراوان:

«أنت ابنة السيد».

لم أفهم. فأبى بالنسبة لى حضن كبير وليس سيدا مخيفا.

«ستخبرينه أليس كذلك».

قلت:

«خذنى داخل الحكاية».

هددته مازحة:

«وإلا أخبرته».

هدأ واقترب واتفقنا أن نذهب مساء. كان لقاؤنا فى الحديقة أسفل تمثال الإله أبوللو إله القمر.

ذهبنا إلى قرطاجنة مرات امتطيت سحابة الخيال، لم تعد بقعة مبهمة أتطلع إليها من حديقة القصر، صارت حكايات لا تنقطع ومدينة سكنت روحى.

هناك كان لدى رفيقى ما يفعله، فدائما يوجد من ينتظر قدومه ليرحب به ويستضيفه فى بيته أو سطح منزله أو يتسامر معه ويتجول معه من زقاق إلى زقاق ويستحلفه أن يغنى أو يريه آخر ابتكاراته السحرية ويتنبأ بطالعه.

وذات يوم كنا قريبا من البحر نتطلع إلى النجوم فسألته عن قدرى، لماذا لا يخبرنى به كما يفعل مع الآخرين.

صمت طويلا، ثم قال إنه لايستطيع قراءته، هناك وشوشات تهجم عليه كلما نظر إلى كفى أو عينى. ولكنه خائف أن يستمع، أرتجف إلى جواره وأخاف من المجهول.

مرت شهور قليلة على هذا الحلم، ثم جاءنا خبر جيوش جرارة فى طريقها إلى المدينة.

«من سينتصر»؟.

كان سؤالاً تقليدياً لرفيقى من الشحاذين والمزارعين والتجار وكل ساكنى قرطاجنة الذين استقبلوه أيام السلام، وبدا ضروريا الآن أن يرد حسن الضيافة، بنبوءة محترمة، تبهجهم وتبعث داخلهم الأمل بالنصر على العدو.

كانت الجيوش الرومانية تقترب كل يوم. ورأى حكام قرطاجنة ضرورة أن يحتمى الجميع بالقلعة.

كانت قلعة مهولة تتسع للجميع، الفقراء، الأغنياء، الأحرار، العبيد، الجميع وحد بينهم الخوف.

تقدمت جيوش العدو وحاصرت المدينة. خطب أبى : هذا وقت تهون فيه

الحياة من أجل الوطن.

حمل الكهنة تمثال إله الحرب بعل إلى ساحة القلعة، التف الجميع حوله يبتهلون وذات مساء بعد الانتهاء من الصلاة، خطب كبير الكهنة :

«الصلاة لا تكفى لابد من أضحية».

كنت أنا الأضحية.

سكتت الفتاة وبدأ الفتى الحكى.

قلت لها :

«أستطيع أن أقرأ طالعك الآن، لن تكونى أضحية».

قالت :

«يجب أن أكون فداء قرطاجنة».

دقت الطبول، ألبسوها ثوبا منقوشا بالذهب والفضة وعقودا وتمائم لا حصر لها، نظرت فى عينيها ورأيت نفسى هناك، أنا قدرها وليس الموت.

امتطيت جواداً واخترقت النيران التى اشتعلت لتحرقها، أخذتها كما يأخذ المرء تميمة حظه. قفز بنا الفرس بعيدا.. بعيدا وقادنا إلى هذه المدينة.

استلقى فهد ونظر إلى النجوم، كأنه يحاول الإفلات من سحر ما. كانت النجوم تختفى واحدة واحدة والفجر يوشك أن يبزغ.

تحول الفتى والفتاة إلى ظلين مرة أخرى وهما بالانصراف.

التفت إليهما فهد، وقال :

«ولكن ماذا تفعلان هنا غير رواية تلك القصة»؟.

بدأ الظلان فى الرقص والغناء.

قال فهد والكلمات تناوئه :

«ألا توجد طريقة للخروج من المدينة»؟

كان الظلان منتشيين، وينظران خلسة إلى فهد ويهمسان.

شعر فهد بالغيظ، ماذا يظنان؟ هل يقولان عجوزا قصيرا أحمق؟

لوح لهما، وهم بالرحيل.

لم يستوقفاه أو يسألاه، إلى أين؟

فهد وحيدا

لابد أن هناك وسيلة للخروج، لابد أن شخصا نجح فى الإفلات من سحر الحكايات، خطرت له الخريطة. أعطاها إياه المرشد باهى وهو يشير إلى امرأة نحيفة، تشبه عصفوراً لا يعرف موطنه.

«إنها زائرة للواحة باحثة عن جذورها، هل تحمل الخريطة معلومات مهمة».

أمسك بالخريطة، بيد مرتعشة، انغرزت نظراته فيها رغما عنه، هكذا تستولى عليه الأشياء القديمة.

يهمس باهى :

«هل أتركها لك بعض الوقت».

يأتى همسه من بعيد كأنه من عالم آخر، لقد انغلق هو والخريطة داخل محارته، هكذا يتصرف مع الأسرار.

ظل يتفحصها وباهى والزائرة يتحركان من حوله مثل وهم. فك لباهى بعض الشفرات التى تساعده فى مهمته الإرشادية، رسائل كتبها جد الزائرة فوق الصخور.

أعطاه نذر من الحقيقة، ونساه هو وزائرته، حتى تبخرا.

ظل يتفحص الخطوط ليال، ينفلت السر وراء الآخر، هناك مدينة غامضة مختفية. واصل فهد السير فى شوارع المدينة وواصل التذكر.

استعاد الحكاية المكتوبة فى الكتاب القديم. تروى عن رجل أكل من شجرة تحمل أغصانها ألف صنف من الفاكهة، تنبت فى مدينة دخلها وخرج منها. خيالات؟ العالم سلسلة من الخيالات، وجوده فى المدينة مجرد حلقة فى سلسلة لا نهائية من مفاجآت الحياة، مرحلة سيعبرها، لحظة بين لحظات، ذكرى سيحتفظ بها، لن يبقى هنا إلى الأبد.

ولكن أين؟ أين المخرج؟

مضى فى طريقه ومر الوقت بطيئا، لم يلتق بأحد. يوم كامل ولم يلتق بأحد.

مجرد ظلال وصخور ومغارات على جانبى الطريق. كلما مر الوقت كانت تتسلل الظلال والصخور والمغارات داخله. كانت أعماقه تتسع لها، حتى تحولت إلى انعكاس لصورة المدينة. أما أحلامه فتحجرت كصخرة، واهتزت كظل وأظلمت كمغارة.

كلما زادت وحدته واجه نفسه، مازال رغم العمر خجلا من قامته القصيرة وملامحه التى تشبه رسما مطموسا.

مازال يتوارى خلف ذكرى أشرف عزام. خوفا من الخطأ. توارى خلفه طوال الوقت، حتى صار أشرف عزام عجوزا جدا وقرر الصمت. كأنه يقول له تصرف، لقد صرت بالغا. تحولت من ولد جاهل يسكن الواحة إلى خبير فى الآثار. ولكنك لم تحرز تقدما فى الحياة، مازلت طفلا ويجب أن تكبر وتتصرف وتفكر كرجل وتستقل بحياتك.

يسأله :

«ماذا تعنى؟ هل أتزوج؟ لماذا لم تتزوج أنت؟».

كان أشرف عزام يدير وجهه ويفكر فى النجوم.

يخبره فهد:

«لا أفهم المرأة».

تبرق عينا أشرف عزام كقطعتى زجاج لا تبالى.

يقسم له :

«أعجز عن فهم أى شىء إلا النقوش المقدسة المرسومة على جدران المعابد».

لم يعد أشرف عزام يفكر فى النجوم، كما سئم الفراغ.

يستعطفه :

«لا تتركنى».

يبدو على أشرف أنه ينتظر ما لا يجىء .

اضطر فهد إلى مواجهة العالم وحده وكان هذا أمرا غريبا ومدهشا لأنه

حدث عند بلوغه الأربعين. لم يعرف كيف يفعل. ظل يدور حول أشرف عزام كما يفعل القدماء بصنم. يلقى بأخطائه تحت قدميه ويطلب منه المغفرة. يبتهل إليه كى يعينه على حسن التصرف، يستشيره قبل أية خطوة.

ولكن أشرف ظل صامتا كالأصنام.

فسر فهد صمته بأنه موافقة. صار أكثر تعلقا به وإصرارا أن يشركه فى حياته. فالحياة مأزق وتظل كذلك حتى بعد بلوغ الأربعين.

كيف.. كيف يخرج من مدينة القصص؟ لايريد أمنية أخرى. هل هذا كثير؟ المدينة أكبر منه، لو بقى لابد أن يروى حكايته.

لا يمكن أن يستمع إلى الأبد. الكل يشارك بقصته. يريد أن تبقى حياته سرا وألمه دفين قلبه.

انحرف يمينا ومن بعيد رأى عينين وشبح ابتسامة، لايريد أن يقترب:

«تعال»..

لا لن يفعل، سيمضى بأقصى سرعة بعيدا.

انسلت من داخله أفكاره وهواجسه وسمع همسا :

«اخترت أن تبقى مع نفسك.. أنت ونفسك إلى الأبد.. فليسقط العالم».

أرعبته الفكرة، لايستطيع مواجهة أعماقه، سيتوقف، ويعطى المجهول فرصة اللحاق به ومؤانسته.

هيئ إليه أن الابتسامة تتسع وتضىء الوجه الذى يقترب منه. لا لا يريد قصة جديدة. أظلم الوجه وابتعد..

ندم

«توقف.. سأستمع».

اختفى الوجه بين كفين وأصر على الابتعاد.

الحكاية السابعة

القصص لا تروى هكذا فى المدينة، لا تكفى آذان. لابد أن ينصت القلب.

شعر فهد بالندم، وسار أياما دون أن يلتقى بمخلوق، مجرد خيالات تختفى بمجرد ظهوره:

«سنبتعد كى لا نزعج آذانك الكبيرة».

يحاول اللحاق بأى منها، والهروب من نفسه.

يجد فهد نفسه وحيدا فى النهاية. وكان الهمس يزداد محذرا:

«إنه الرجل الذى لا يحب قصص المدينة».

«إنه يخرق القوانين بصمته، ما حكايته؟».

أصوات كثيرة:

«لن نسمح له».

ظلال كثيرة تبتعد، وأخرى تقترب فى عناد لتروى قصصها.

صوت حاد أعلى من باقى الأصوات بدأ يروى حكاية، إنه صوت امرأة، نهرته حين التفت نحوها، حذروها:

«لن يجعلك ترين»

نظرت إليه فى تحد

«لن أتركك لتطفئ قصتي».

تشبثت بحائط يبعد خطوة:

«هذا الحائط يخصني، سأحميه هيا ابتعد».

اختنق صوتها وسكتت.

بدا أنها مشغولة بمقاومة الصمت، لابد أن تتذكر ولا تتوقف عن الحكي، تجاهلته وبدأت تروي، تستعين بعبارات مكتوبة فوق الحائط:

اسمى رميولا، ولدت فى مدينة بومبي، فى بيت واسع يطل على خليج نابلي. وفوق بلاطات البيت علمنى أبى أن أكتب «المال لذة»، كان بيتنا مثل حصن، يمتلىء بالألعاب والبهجة والمال.

حرص أبى أن يرينى كل أنواع العملات التى يجنيها من حانته، حانة اللذة التى افتتحها قريبا من السوق، كانت مناسبة جدا لمدينة ثرية كبومبى.

هكذا كان يدللنى، يحيطنى بأكياس ممتلئة بالنقود، ويقول بفضل المال نحيا فى بيت كبير ونتذوق أفضل الأطعمة.

بدا أنها تحاول تذكر بعض الأحداث.

اتجهت إلى الحائط وقالت هنا التقبت به لأول مرة وربما للمرة الأخيرة، هذا الحائط هو جزء من سور كان يحيط بيتنا. كنت مستندة عليه ألهو بعد القطع الذهبية. اقترب منى فتى لم أر مثله من قبل، ربما لأننى لم أكن أنظر جيداً. أطار العملات منى فبكيت، ثم انقشعت سحابة غبائى فرأيت الشمس، والخليج والطيور، وتنسمت عطر زهرة برية.

ضحك فضحكت، وتحاورنا طويلا دون كلام، مضى ووعد أن يعود.

كتبت على الحائط مشاعرى وقلت إننى سأنتظر.

أبصرت الجمال، وتملكتنى بهجة غامضة، ولكن العالم تحول فجأة. العالم جن. اهتزت الأرض وفزعت الطيور، ونفث الجبل سحابة كبيرة من الدخان، لها شكل وحش استيقظ لتوه، وقرر الخروج من مخبأه ومصافحة بومبي.

الشر لا يبدو شرا فى البداية، اهتز الجبل، لم ينزعج أهل بومبي، إنه جبلهم، يقرر الانفتاح بقلبه على المدينة، فهل هذا شر؟ إنه يعبر فقط عن نفسه، لماذا يزعجهم هذا.

أهالى بومبى لم يعرفوا سوى الملذات والضحكات، حساء السمك المميز، حانة أبي، منازلهم الفارهة، والجبل الذى بنوا بيوتهم قريبا منه، محفور داخلهم، ولا يتوقعون منه الضرر.

ولكن السحابة لم تختف وتحولت إلى اللون الرمادي، ثم أظلم كل شيء.

وزمجر الجبل فى غضب، أطلق شظايا وألسنة من لهب. لقد ثار بركان فيزوف الكامن داخله.

غدر بهم الجبل الذى أحبوه، انسابت دموعهم. واتجه كثيرون ناحية

البحر، ورأيت أبى يهرول حافى القدمين دون سرر نقوده وينادينى.

اختبأت منه خلف الحائط، لا يمكن أن أترك مكاناً تحققت فيه نبوءة الآلهة. خصتنى الآلهة ذات يوم بها فى معبد أبوللو «لن تموتى حتى يخفق قلبك للحب».

يئس أبى وركب البحر وانتظرت.

هناك من يتنفس إلى جواري، ظننته هو وناديته أتانى صوت عجوز، هيا يا ابنتي مازلت صغيرة وحلوة، فتشى عن طريقة للنجاة. ولكنى تمسكت بما قالته الآلهة، فزجرني، لقد قتل الجبل آلهة المدينة، فكيف تصدقين آلهة ميتة. ابتعد صوته. عجوز لكنه تمنى النجاة.

الصرخات تعلو، ربما تعثر وسقط وصرخ كآخرين وربما حمله الموج إلى حياة جديدة فى مدينة تشبه بومبى أو أقل، ليتحسر أبدا على بومبى الجميلة.

قررت البقاء قد تكون آلهة المدينة ميتة ولكن قلبى حى وينبض ويؤكد أن الحب له وجود وأنه قدري.

كانت الشظايا تتساقط والبيت الذى شهد طفولتى يشتعل، وشعرت باختناق. أمسكت بى يد قوية وقادتني. تشبثت بالحائط، ولكن اليد لم تتركني، حتى وصلت إلى هنا.

نظرت روميولا إلى فهد وكأنها اكتشفت وجوده فجأة:

«أنت لا تحب الحكايات، ابتعد».

فهد وحيداً للمرة الثانية

وجد فهد نفسه مرة أخرى وحيداً. الذكريات تنبت داخله ولا تبقى طويلاً. تتوالى سريعاً، تتكرر بلا انقطاع. ترك الواحة لأول مرة بصحبة أشرف عزام.

كلما ابتعد كانت قطعة من روحه تتآكل. وجد نفسه فى بيت مهول، رسومات لا حصر لها على الجدران، دهاليز، عتمة وبرودة، وخادم وحيد، له عينان تتعلقان بأشياء ليست مرئية، خطواته قفزات أرنب بري، وضحكته مكتومة وخائفة، وذراعاه مرفوعتان دائماً، كأنهما جناحان تحلمان بالتحليق.

هل كان يصفه أم يصف نفسه. اشتاق منذ اللحظة الأولى إلى العودة للواحة وخيمتهم، النجوم، الهواء المعبق بروائح سحرية وهمس جده.

المبانى شاهقة فى القاهرة، ومليئة بالمصاعد التى تأخذه إلى أعلى بمجرد الضغط على زر، تحمله من سقف أسمنتى إلى آخر.

بيت أشرف عزام ليس مجرد حجرات ولكن بوابة تنقله من زمن إلى آخر، كان أشرف مهووساً بجمع القطع الأثرية من مختلف بلدان العالم. يضعها هكذا، جنباً إلى جنب بعشوائية، لا ترضى ذوى الأذواق الراقية ولكنها ترضيه، كأنها فى مواقعها تلك، ستبوح بأسرارها.

أما بالنسبة لفهد فتلك القطع الأثرية، مسجونة مثله فى بيت أشرف الفسيح وأسلوب حياته الصارم. كانت تزوره فى أحلامه كل ليلة، لتقنعه بالهروب من تلك الحياة، كى لا تموت روحه.

إناء الشاى الخزفى على شكل فارس موشيتا يلوح بدرعه ويركع، يعلن أنه فى تجوال لا نهائى منذ صنعته أصابع خزاف منذ أكثر من ألف عام، وأنه يفتقد وطنه الذى عرف بالصدفة أن اسمه الحديث بيرو. فرس النهر الفرعونى فوق إحدى الطاولات يشير إلى زهور اللوتس التى تزينه منذ آلاف السنين ويقول لا يمكن أن تنتهى حياتى فوق طاولة، حتى لو كانت طاولة من العصر العباسي، ومطعمة بالصدف والمرمر، ولكن الجواد اليابانى القريب

منه يهمهم أنا أيضاً لى نفس الحلم أن أرحل يوماً، أنا أيضاً لدى تاريخ وذكريات وقصص.

صور وتماثيل أخرى كانت تدخل أحلامه وتثرثر، لن نبقى طويلاً هنا، هل تريد أن تأتى معنا؟

يقترب الجواد فى خطوات رشيقة:

«إنها خطوات الحرية هيا».

يقاطعه فرس النهر:

«متي؟».

يتكلمون بجدية، لكل منهم حياة يود الرجوع إليها، يتمنى أن يصحبهم، ولكن الخادم يقتحم المشهد ويمسك به.

يقول بصوت حاسم:

«الفطور، أشرف بيه فى انتظارك».

يفيق فهد ليجد نفسه فى الفراش، ولايجزم أن ما حدث مجرد حلم.

فى طريقه إلى قاعة الطعام يتوقف قليلاً أمام الطاولة، حيث فرس النهر والجواد، يهيأ له أنهما يتفقان على زيارته مرة أخرى فى حلم قادم، يغمز لهما.

يجد أشرف عزام ممسكاً بإبريق الشاى الخزفي، وفارس الموشيتا يحاول أن يشرح قضيته، لا يمكن أن أبقى كإبريق، ليس من أجل هذا خلقت أنا فارس وأحتاج إلى حرب، أظهر فيها شجاعتي. يضعه أشرف عزام فى عصبية كأنه يسمعه وسئم حكايته المكررة المملة.

يرتشف الشاى على مهل كعادته، يبتسم لفهد ويربت على رأسه:

«هل نمت جيداً؟».

يومئ.

يشعر أن فارس الموشيتا لا يعجبه الرد.

يخفض فهد رأسه، كى يتفادى النظر فى عينيه الخزفية.

يقول له أشرف:

«هل أنت مستعد»؟

يومئ.

يبدأ يوم دراسي طويل، يروح المدرسون ويجيئون وهو قابع مكانه، والتماثيل والصور تحيط به وتراقبه، تتهامس عليه ولا تفصح.

حكاية لم يصدقها فهد

إنه قدره. تقدم نحوه، ضئيلاً، نحيفاً، معلقاً بالنقوش المقدسة، أشرف عزام يسبقه ليرشده:

«فهد».

يقف بخشوع أمام رسم فرعوني:

«هل تري؟ إنه المجد».

يقول فهد بطفولة:

«الرسم جميل والألوان زاهية».

أشرف لايرد ويشير إلى الرسم فى جلال، يُبسّطه ويشرح قصته.

كان فهد يفكر فى كل هذا، وهو سائر فى المدينة، يفتش عن مخرج:

«ألا يوجد باب».

فكر أن يتسلى ويختار للمدينة اسم «مدينة الكنوز، مدينة الحكايات، مدينة الألف حضارة، مدينة لا تشبهها مدينة، المدينة المفقودة، المدينة السحرية، مدينة أسرتني، مدينة بلا باب، مدينة حلوة ولكنى لم أتعود الأماكن الحلوة. تعودت على الصحراء والأطلال والفراغ».

انحرف يميناً، تجاوز مجموعة ظلال.

خطوة بطيئة تحاول اللحاق به:

«فهد».

كان صوتاً من الماضى ولكنه لا يذكر صاحبه. توقف واقتربت منه الخطوات:

«من .. من»؟

«أنا عم بلال».

«؟؟؟».

تذكر بطيئاً.

أكد العجوز:

«بلال صاحب كشك الجرائد».

يتأكد فهد:

«الكشك الزيتوني؟ .... عم بلال».

كان كشكه مثل مظلة وأحياناً كندبة فى الشارع الفسيح، يتلصص عليه من نافذة غرفته.

سكن فهد غرفة مستطيلة، ملونة، فى بيت أشرف عزام المهول. مزينة بالبرديات والنقوش. تحدد مستقبله هناك، حفظ أسماء الآلهة، رددها جيئة وذهاباً بين جدرانها سخمت إلهة الحرب وايزيس إلهة المحبة ونوت إلهة السماء وجب إله الأرض وتفنت إلهة الندى وشو اله الهواء واتوم رب الآلهة، قرأ حكم آني، وهو يستند إلى النافذة ويراقب عم بلال وحركة البيع والشراء فى كشكه، ويستمع إلى الثرثرات.

يتسكع المارة أمام الكشك الزيتونى ويرفعون رؤوسهم إلى نافذته، ويخيل إليه أنهم يلاحظون شيئاً يؤلمهم.

ابن بلال يماثله فى العمر ولكنه أكثر جرأة وحرية، أطول وأعرض، كان يحضر الجرائد بنفسه كل صباح. يتبادلان النظرات وأحياناً الكلمات:

«كم الحساب»؟

«ثلاثة قروش».

يراجع فهد الجرائد المصرى والمقطم، الأهرام، الهلال...

«هل أحضر روزاليوسف».

يفكر قليلاً:

«لابد أن أسأل أولاً».

يختفى بضع دقائق، يطرق غرفة المكتب يحاول أن يستخلص من أشرف عزام إجابة..

«أى شىء».

يجرى ناحية الباب ويقول:

«أى شىء».

يعد الولد القروش، وفهد يعيد:

«أى شىء».

يفهم الولد المقصود، ويترك فهد حائراً.

بعث الماضى داخله، وتوالت صور بلال وابنه والكشك، ولكنه لم يتوقع أن يلتقى به هنا. احتضنه:

«كيف أتيت»؟

يحكى الرجل:

«الزمن ثقيل علي، ترك بصماته على خطواتي، وصبغ رأسى بلون ثلجي. لا أذكر كم عمري، ولكن وجهى لم يعد وجهي، كلما نظرت فى المرآة أعرف أنه الزمن الذى فعل بى ذلك. أنا قادم من ميدان التحرير. لقد تنحى الرئيس».

سأله فهد فى قلق:

«أى رئيس»؟

ضحك العجوز:

«وهل فى مصر إلا رئيس واحد.. تنحي».

«ماذا»؟

«ترك الكرسي.. أجبره الثوار على تركه».

شعر فهد بالشفقة على الرجل. إنه يهذى فلا يمكن أن يحدث هذا.

يسترسل العم بلال:

«صوره كانت تتصدر المجلات والجرائد التى أعرضها ليل نهار فى كشكى الذى تعرفه، الكل يتسابق لنقل كلماته ووصفه بالحكمة، وسداد الرأي. عيناه مثبتتان للأمام دائماً، وابتسامة تستمد سطوتها من جاه لا أول له ولا آخر. وشعره لا يشيب، يبدو فولاذياً.

كم تأملته وقلت فى نفسى «إنه العز».

لا يمكننى أن أتكلم عن العز، لا أعرفه، فقط أتلصص عليه حين أقلب فى الصحف والمجلات لدي. إعلانات مهولة عن مساكن فارهة، منتجعات سياحية، كمبوندات «أفهمنى معناها أحد زبائني»، سيارات أتوه فى ماركاتها، وهناك مجلات مخصصة لحفلات ولاد الذوات، كنت أتصفحها على مهل. وحين أعود إلى غرفتي، آخر الليل أشعر كأننى قادم من عالم آخر، أصحابه لا يشعرون بوجودي. وأريد أن أتحرك بخفة كائن غير مرئي. ولكن أشعر بقيود تمنعني. وتأتينى أفكار وصور ولكنى لا أتكلم، لقد تعلمت أن من خاف سلم.

لماذا شخت وحدي، أما شيخوخته، فتظاهر الجميع بعدم وجودها، وأخفوها كسر. الجميع كان يعرف أنه شاخ وأن الأحداث تسقط من رأسه، ولكن من كان يجرؤ أن يقول.

كان فهد يراقب الرجل ولا يقاطعه.

التفت إليه بلال:

«هل رأيت حفيدي، آه ولكنك لن تعرفه، لم يعد طفلاً، صار رجلاً كبيراً».

رفع كفه إلى أعلى ليؤكد كلامه:

«إنه يرى ما لا أراه ويعرف أشياء كثيرة لا أعرفها، أنا الذى قضيت حياتى بين الجرائد والكتب ولكنه يقول الحياة شئ آخر، مثل الطيف أو الضوء. شيء مبهج. أنا حبيس العتمة والسن، وهو يقول أننى حبيس الوهم، وذات يوم اصطحبنى معه إلى ميدان التحرير وقال سأريك شيئاً. كان يبطئ من أجلى ويسرع من أجل حلمه ووصلنا».

ابتلع العم بلال ريقه وصمت.

ظل فهد يراقبه، ولا يقطع صمته.

مدد رجليه وأراح جسده أسفل شجرة:

«تعال يا فهد.. تعال يا بنى لنستريح، هل تسمع ما أسمعه، هل ترى ما أراه».

أغمض عينيه وتمتم:

«أين أنا.. كنت فى ميدان التحرير أتجول يدى فى يد حفيدي، رأيت الأحلام من حولى كثيرة، كل منها يجذبنى إليه».

استند فهد إلى شجرة مقابلة، وراقبه حتى غفا..

أشارت إليه:

«هيا».

ألقى فهد نظرة سريعة على بلال النائم وإليها.

مضت وتبعها.

توقفا ليسأل:

«لقد كنت داخل رأسي كيف خرجت»؟

ضحكت وغنت.

قال:

«أعرف الأغنية».

حاول التذكر أين سمعها من قبل دون جدوى.

تبعها، كانت أشباح المدينة تلوح من بعيد، يقترب البعض فيقول واحد:

«أهلا حنين».

وآخر:

«أمازلت تغنين»؟

يجلس ثالث وينصت:

«أغنية حلوة».

يلتفت إليه فتقول:

«وافد جديد إلى المدينة».

وتقول:

«قادم من الواحة».

تتوالى الأشباح فتقول:

«يخفي قصته».

يودعونها:

«إلى اللقاء إذن يا حنين».

يرن الاسم داخله ولا يتذكر.

تقول:

«كنت أسكن ذات يوم فى الواحة، ثم هطلت أمطار».

تسكت ثم تحكى عن حبيب مات ورجل عجوز تزوجته:

«زوجى كان طبيبا اسمه عبد الرحمن»..

شعر فهد بالأسف، ترك الواحة صغيرا ولم يلتقط كثيرا من الحكايات.

تقول فى حزن:

«لقد نسينا الناس».

يلتفت فهد إليها، تنساب جدائلها بلا نهاية، لايترك الزمام لأحلامه وخيالاته:

«لابد أن أعود».

هزت رأسها:

«تتكلم مثل عبد الرحمن».

تحكى:

«كنا معا، يدى بيديه ولم يدخل المدينة معى».

قال فهد:

«أريد الخروج».

قالت:

«لابد أن تتأكد مما تريد».

أخذته من يده

«هكذا تفعلين مع كل وافد؟».

تبتسم وتواصل السير فى صمت.

فهد ليس وحيدا

مرت أيام كثيرة، تنقلت معه فى أنحاء المدينة، أنصتا معا إلى مزيد من الحكايات ثم قالت:

«أرى الحلم الذى يطاردك».

وقالت أيضا:

«الأحلام تجعلنا نغامر».

نظر إليها فهد فهمست:

« أنت لا تصدق ما قاله بلال؟ أنا أصدقه، أراه ممكنا».

قال فهد:

«أحلم أن أذهب من هنا، فأنا لا أفهم المدينة، أريد أن أتاكد مما سمعته».

قالت:

«عرفت بوجود المدينة من عبدالرحمن كان يسحرنى بكلماته وتجاربه».

انتبه إليها فهد:

«وجد طريقة للخروج؟».

قالت حنين:

«صرت أحلم بالمدينة ليل نهار، يمسك بأصابعى لأتحسس خريطة رسمها، كنت عمياء سألته فقال مدينة مدهشة تهب لمن تشاء البصر والبصيرة. يحرك أصابعى فوق خطوط متعرجة ويقول هكذا دخلت وهكذا خرجت، هناك ألف طريقة للدخول ، كان بارعا جدا».

يسألها:

«كيف خرج»؟

تقول:

«حاول أن يشرح لى ولم أنتبه، كنت أحلم بالمجئ، قلت لنفسى لو قدر لى المجئ، لو رد إلى بصرى، فلن أترك المدينة مهما حدث».

اختفت وعادت تمسك ناياً:

«هذا الناى؟»

سكتت واقترب أكثر وقال كأنه يقاوم ألماً:

«نعم هذا الناى».

أمسك فهد به، تأمل النقوش:

«مكتوب الموت والحياة».

رفع رأسه، هزت رأسها ورددت:

«عرفت».

شعر فهد بالارتباك وهو يقلب الناى.

قالت:

«يشبه الناى الذى تركت؟»

اعتدل فى جلسته ولم يرد ثم قال:

«ما الفائدة؟ لم أعزف منذ وقت طويل».

ناولها الناى فردته:

«لماذا لا تجرب»

قال:

«لم أعزف منذ وقت طويل».

قام فتبعته.

حكاية من فوق المنصة

سارا معا، سامرته وحكى لها، ليس لديه ما يقوله، دخل عالمه ناس، لم يراهم ولم يستمع إليهم كما يجب. كان دائما مشغولا بأفكار وأحلام أخرى، كان ينكب على البرديات، ويطارد حكايات الماضى باكتشافاته الأثرية، ويحلم بالمجد. إنه شهير ووحيد.

كانت حنين تستمع إليه:

«تشبهه».

«من»؟

«عبدالرحمن..، عذبته، كان وجودى مفاجأة له».

تسكت ثم تقول:

«غير أحلامه من أجلى، وأنا ماذا فعلت، أصررت على القدوم إلى هنا وتركته».

«لماذا لم يصحبك؟».

تقول:

«من يخرج من المدينة لايمكن أن يعود إليها، فماذا فعلت؟ أصررت على القدوم وتركته».

أطرقت.

قال:

«أحببته»؟

سالت دموعها.

أعاد السؤال:

«أحببته؟»:

بكت حتى بللت الدموع جدائلها. إنها تحيره، كان وجودها مفاجأة بالنسبة إليه. فردت جدائلها فشعر بالضعف ولكنه واصل السير.

هناك ساحة فسيحة، لقد عاد من حيث بدأ. هى الساحة التى استقبلته

عند قدومه إلى المدينة ولكنها مختلفة عن السابق. زحام وأناس تتسامر وتضحك، خيام نصبت هنا وهناك، أضواء تتلألأ وأعلام ترفرف. منصة تتوسط الساحة وخطباء يتوافدون. رجل يرتدى الملابس الرومانية يقول:

«هناك ثورة فى مصر وأنا شهدت ثورة».

يعلو صوت:

«احك قصتك، فنحن نحتفل اليوم».

يحكى الرجل:

«كان لابد أن نمر بهم، لم يجرؤ أحد منا أن يرفع رأسه، السيد فى عربته ونحن على الأقدام.

«ماذا يفعل بالداخل؟»

كان صوته وضحكاته تصل إلينا:

«ما شأنكم؟، أنتم تحملون أمتعتى وتلبون أوامرى أنتم عبيدى».

كانت كلمة عبد لا تؤلم، لقد ولد كثير منا فى العبودية، ولكن هناك آخرون كانوا أحرارا ذات يوم، هؤلاء سمموا حياتنا بأحلام وحكايات لاتنتهى عن لذة الحرية. وفجأة صارت الكلمة ثقيلة مثل حجر.

هرب كثيرون منا وانضموا إلى الثورة، نعم العبيد قاموا بثورة وصاروا جنودا فى جيش قائد منهم اسمه سبارتاكوس أما أنا فبقيت، كنت خائفا، قلت: أنتظر حتى النهاية، أنتظر حتى تتضح الأمور. كنت أتمنى النصر لسبارتاكوس وجيشه.

سبارتاكوس أحد هؤلاء الذين لم يألفوا حياة العبيد. كان راعى ماشية من تراقيا. وقع فى الأسر، وصار عبدا، يباع ويشترى ويتنقل بين السادة، ويستمع إلى حكايات العبيد. كان ملكا ذات يوم لسيدى، ورأيته عن قرب، هادئ ونبرته ودودة قال لى:

«هيا قل لى كيف صرت عبدا».

«أنا عبد ابن عبد» يقول «ولكن كيف صار أبوك عبداً، وكيف صار جدك

وجد جدك، إن جذورك كانت حرة ذات يوم».

كان كلامه لايعنى شيئا، مجرد كلام لم أفكر فيه، فأنا أعمل طوال اليوم بيدى أحمل الأشياء وأضعها حيث يشاء سيدى، ألبى أوامره، هكذا أنا، لست مثل سبارتاكوس أتعب رأسى وأطرح الأسئلة. لم يمكث معنا طويلا. كان سيده الأخير يملك حلبة مصارعة، ابتاع سبارتاكوس ليكون مصارعا، وهذا معناه إما أن يقتل رفيقه أو يموت، مارس سبارتاكوس هوايته فى طرح الأسئلة، لماذا نفعل ذلك، نقتل بعضنا ليمرح السادة، ألا يكفى أنهم سلبونا حريتنا.

كل يوم كان يموت عدد منهم.

«لايمكن أن يستمر هذا، لسنا وحوشا نحن بشر ولنا كرامة».

كانت كلماته تدور فى رأس كل منهم، فهموها، أحسوا بها قرروا الفرار مائتان نجح منهم نحو شبعين. صاروا أحراراً. شعروا بالكرامة ووجهوا نداء لكل عبيد الإمبراطورية:

«حرروا أنفسكم وانضموا إلينا».

استجابوا له، تكاثر جنوده آلاف كثيرة. انضم إليهم الفقراء والمهمشون، كانوا أحرارا، ولكن كالعبيد، بلا حقوق ولا أحلام ، هكذا برر لى أحدهم.

«وأنت ماذا يبقيك ، لماذا لاتنضم إلينا»؟

أنغمس أكثر فى العمل وأطيع الأوامر كى لا أفكر.

«هل أنت خائف؟ ألا تسمع بانتصارات سبارتاكوس؟»

كنت أسمع، ولا ألتفت إنه حلم والأحلام ليست للعبيد.

كنا نسمع ضحكات السيد، سنمر بهم فى طريقنا، سنراهم، مثبتين إلى مشانقهم، المنصوبة من كبوا إلى روما.

بقايا جيش سبارتاكوس، نحو ستة آلاف جسد متعفن. كان المنظر مرعبا، انتفض زميل لى وبكى أما أنا فلم أنظر إليهم، مثقلا بأمتعة السيد، أمضى إلى حيث يريد.

ثم رفعت رأسى ورأيتهم، يتقاذف الهواء أجسادهم، ابتسامة على وجه كل منهم.

شعرت بالخجل، وللمرة الأولى بثقل العبودية، حاولت أن أخفض رأسى وأواصل حياتى كما كانت ولم أتمكن، لا يمكن أن أنسى روعة السماء ولا الفضاء الفسيح، وجثث جيش العبيد المهزوم المعلقة هناك كصرخة أخيرة. لم أشعر بنفسى، تقدمت إلى عربة السيد ماذا فعلت؟ قالوا سددت إلى قلب السيد سهما، من ؟ أنا؟ لا أعرف ماحدث بعد ذلك وجدتنى هنا فى هذه المدينة.

رفع صوته ولوح بيديه:

«بينكم».

تصفيق حاد.

يردد:

«ليحمى الله الثورة».

أحد الشباب يصعد المنصة ويلوح بعلم مصر، تتبعه أعلام عربية أخرى.

أحدهم يعلق على القصة:

«ولكنهم ماتوا.....لا أمل».

أصوات تسكته:

«كيف وصلت إلى هنا» «إنه من الفلول».

«أنا.....أنا.....».

يضيع صوت الرجل، يقتادونه خارج الساحة.

هتاف:

«تحيا الثورة».

يصعد إلى المنصة خطيب آخر.

يقترب فهد من الحشود يده بيد حنين.

حكاية عن الربيع والحرية

يتزايد الوافدون إلى الميدان، تعلو الهمهمات، لا أحد يلتفت إلى المنصة، لا أحد يستمع إلى ما يقال. الأعلام كثيرة، واللافتات أكثر.

أبرز اللافتات كانت عربية، كتبت بالفصحى وبمختلف اللهجات تونسية، مصرية، بحرينية، سورية، ليبية، يمنية، أردنية ، مغربية....

يتبعهم غاضبون من مختلف العالم، أمريكيون يصيحون:

«وول ستريت أعد لى نقودى»

«سنحول وول ستريت إلى ميدان التحرير»

وبريطانيون يفتقدون العدالة يؤكدون:

«we want to eat tonight»

ويونانيون يهددون بالإضراب. إيطاليون يهتفون ضد الظلم، وجنسيات أخرى كثيرة.

تتداخل اللهجات فى هدير متواصل، يعلو وينخفض، ولا يصمت أبدا.

الحناجر المبحوحة تحيط به.

حنين تسمع وتبتسم ويبدو أنها تفهم، تنساب كموجة بين الأمواج. يحاول أن ينساب معها ولا يستطيع. يوقفه الماضى مثل شوكة، ينسل من داخله ظل، يمسك به ويحاول أن يقوده.

يحاول أن يفهم، يسأل:

«هل جن العالم»؟

يبتسم الظل ولا يرد، فقط يشير إليه:

«تقدم .. تقدم».

يحاول أن يفهم:

«إلى أين؟».

يهمس الظل:

«ألا تبحث عن باب؟».

شعر فهد بالخوف:

«الآن..كيف؟».

كان يراقب حنين، وكانت تسبح بين الجموع بجدائلها وتضحك:

«فهد ألا ترى؟ .. إنه حلم».

استمع فهد إلى الحشود وكانت قطرات الدم تتساقط من جروح هنا وهناك، اختلس النظر إلى الظل فأشار إلى نقطة مضيئة:

«من هنا الباب».

كان الخطباء يتوافدون على المنصة، كل يلقى كلمة ولكن الحشود لاتستمع، الصيحات تعلو والأعلام تلوح والدم يتساقط.

سأل فهد أحد الجرحى وكان فتى صغيرا:

«هل تؤلم»؟

مسح الفتى قطرات دم تساقطت من جرح أسود، ثم اندمج فى الهدير، بحت حنجرته، ولم يسكت.

كان الظل ينثنى من بعيد ويناديه:

«الباب من هنا».

تتبدل الوجوه فوق المنصة.

«أين ؟»

يشير الظل إليه.

«من هنا».

حنين تعتلى المنصة، ترقص، تنساب جدائلها مثل بحيرة.

يحاول أن يطبع صورتها فى قلبه، أرسل إليها قبلة خفية، يناديه الظل:

«هيا إلى الباب .. لاتضيع الفرصة».

خطا فهد نحوه خطوة ثم توقف.

ينثنى الظل كعلامة استفهام.

مجـد

سكان المدينة يهرولون ناحية الساحة:

«ما الذي يحدث»؟

«وافدون جدد».

«غاضبون؟».

يومئ الجميع.

يحاول فهد أن لا يلتفت إليهم، بعضهم تعرف عليه وآخرون سمعوا عنه وتغامزوا:

«إنه الرجل الذى يخفى حكايته».

ينتمون إلى حضارات وأزمان مختلفة، الحكايات قربت بينهم وجعلتهم يتفاهمون.

استوقفه عربى ينتمى إلى زمن فات وقال كمن يقرأ طالعه:

«تحب».

بهت فهد وتغضن وجهه. أراد أن يسأله سؤالا ولكنه تراجع.

التفت فهد خلفه وحاول أن يراها، لم يتمكن.

قال له الرجل:

«أغمض عينيك».

فعل، فرأى حنين بوضوح وخفق قلبه. فتح عينيه، كان الرجل يبتعد، سأله:

«من أنت؟»

«أنا العربى».

«من أى زمن ؟ ما اسمك؟».

«مجد».

تدافع ناس المدينة وأشباحها، حاول فهد أن يشق طريقا كان يختلس النظر للوراء، وفوق المنصة. كان يفكر، وكانت أفكاره تؤلمه.

الناى يعزف من جديد

اختفى الظل والباب، صار الخروج حلما مرة أخرى. شعر فهد بقلبه يرتجف، ما هذا؟ لا يستطيع أن يصف مشاعره. حاول أن يلتفت أو يسير، كان الزحام شديداً، بقى دون حركة ، لم يعد يرى المنصة ولا حنين.

سمع همس.

«إنه ضئيل جدا».

«ويخفى حكايته».

«لقد سألنى عن باب للخروج».

ضحكات

«باب ؟ أمر غريب».

التفت أحد الوافدين الجدد إليهم، كان يحمل لافتة كتب عليها: حرية، إنسانية، عدالة اجتماعية.

«من؟ من يبحث عن باب الخروج؟»

يشيرون نحوه ، همس بين حاملى اللافتات، يختلسون النظر إليه. يقترب منه صاحب اللافتة ذو الشعارات الثلاثة:

«تريد الخروج؟ ونحن أيضا».

ويقول آخر:

«هل وجدت الباب ؟».

يتمتم فهد بكلمات.

تعلو الأصوات من حوله:

«ماذا؟ لانسمع شيئا، أفسحوا الطريق نحو المنصة».

حملوه إلى هناك..إلى حيث حنين كانت تقف وتغنى، وأحد الخطباء يحاول أن يحكى قصة.

سأله فتى وهو يمسح جرحا تقاطر منه دم:

«أين باب الخروج؟ نريد أن نعود، العالم ثائر والحكاية لم تكتمل».

همست حنين فى أذنه:

«المدينة ساحرة لماذا يريدون الخروج؟».

قالوا:

«تكلم».

وقالت:

«اعزف»

أعطته الناى.

كان لايزال يفكر وكانت الأفكار مثل أشواك. وسمع أنغاما نادرة، من أين تأتى؟ ظن أنها قادمة من روحه، واستغرق وقتا كى يكتشف أن الناى التصق بروحه.

بدأ العزف دون إرادة.

لاتتوقف يا حبيبى

العزف ليس سهلا الآن.

هذا ما أراد أن يقوله لحنين وللحشد. هل كان يقصد هنا فى هذا المكان أم في هذا الوقت؟

كان طفلا حين عزف ألحانا جميلة ولا يعرف كيف يعود. ببساطة لقد شاخ وتعب، صارت أحلامه وراءه. النغمة الأولى كانت آهة طويلة.

توالت النغمات، فانفضح أمره، كانت تروى قصته للجميع، ألم وذكريات. أحاطت به اللافتات والأسئلة.

استمر فهد فى العزف، انسابت دموعه. بدأت الجموع تغنى، كلما تسلل اللحن إلى قلب، ردد أغنية.

صارت الأغانى كثيرة ، أكثر مما يتوقع. كل أغنية تحاول أن تضبط إيقاعها على اللحن. وكلما انتظمت الأغانى فى لحنه، يرى باب الخروج واضحا، قريبا.

ولكن تلك كانت لحظات نادرة، فما تلبث الأغانى أن تنفرط، ويتوارى الباب.

شعر فهد بالإرهاق، لمعت حبات العرق على جبهته.

همست حنين:

«لاتتوقف يا حبيبى».

لايمكنه التوقف، ليس الآن بعد بزوغ الأمل. كان هناك حاسدون، يحاولون الوصول إلى المنصة وإسكاته، حتى هذه اللحظة لم ينجحوا.

الواحـــة

هل تذكرون الواحة، فهد لم ينسها أبدا، تلهمه دائما.

زبير كان قابعا أمام الخيمة، لايمكن التكهن بما يدور فى رأسه، عيناه مغلقتان، هل أعطى المظروف إلى حبيبة كما طلب منه فهد.

من يدرى، ربما فعل، يحب فهد ويطيعه ولكن الأمر يتعلق بأهوائه فى النهاية. رفع رأسه الآن وبدا أنه ينصت إلى شئ قادم من الشرق.

المرشد السياحى باهى كان بصحبة وفد سياحى جديد قادم إلى الواحة، وكان يحكى أسطورة شيقة من أساطيرها ولكنه توقف فجأة وتغيرت تعبيرات وجهه. لم يهتم مرافقوه بما طرأ عليه، وأداروا مثله وجوههم نحو الشرق.

حبيبة أين هى؟ هل مازالت تفتش فى حكايات جدها عبدالرحمن، هل استعادت خريطتها.

هاهى، مازالت فى الواحة تستند إلى صخرة، تتحدث إلى أحدهم وتفكر فيه، عيناه مغارتان، جسده رمح جاهز للانطلاق، و.....

ما هذا؟ هل وقعت فى الحب؟

وهذا يعنى قصة جديدة، تضاف إلى ملايين القصص التى لانعرفها. إلا إذا قرر أصحابها روايتها أو تسجيلها، ولو بطريقة غير مألوفة كعبد الرحمن.

هناك شئ يقطع أفكارها، نظرت هى ورفيقها ناحية الشرق وقالت:

«هل تسمع؟».

أجاب:

«ما هذه النغمات الساحرة؟ من أين تأتى؟ ».

داخل المدينة السرية، كان فهد يواصل العزف، ولايعرف أن نغماته تسربت، رغم قوانين المدينة الصارمة، وامتدت مساحات شاسعة وسمعها ملايين.

عزف الناى، وانسابت نغماته، وكان العالم يستمع فى ذهول ويتجه نحو الشرق، وباب الخروج يظهر ويختفى.

«تمت»

المؤلفة في سطور

منال القاضى

أولا : إصدارات أدبية

يحدث أحيانا (مجموعة قصصية) - دار الأمين ١٩٩٨.

العين السحرية (مجموعة قصصية) مركز الكتاب للنشر ٢٠٠٠.

لاظل ولاصدى (رواية) - مكتبة مدبولى ٢٠٠٢.

نقط فوق الحروف (حوارات سياسية)- مركز الكتاب للنشر ٢٠٠٣.

يا قلبى لا تحزن (رواية) - دار الهلال ٢٠٠٥.

رغبات خفية (رواية) - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٨.

حكاية سيدة مصر القديمة - الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٠.

سلسلة أفكار غيرت العالم - دار المعارف (٢٠٠٨ - ٢٠١٠).

صدر منها:

١- محمد يونس أبو الفقراء.

٢- مهاتير محمد طبيب ماليزيا .

٣- نيلسون مانديلا محارب ضد العنصرية.

٤- بنظير بوتو حاملة راية الحرية.

٥- طلعت حرب رائد الاقتصاد الوطني.

٦- أحمد زويل عاشق الزمن.

٧- الإمام محمد عبده رائد الإصلاح الدينى.

٨- جان جاك روسو الملهم..

ثانيا : إصدارات علمية

١- الصحة النفسية للطفل والمرأة - دار المعارف ٢٠٠٥.

٢- المراهقة ومشاكلها - دار المعارف ٢٠٠٧.

٣- التوحد المشكلة والحل - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٩.

أحدث إصـــــدارات روايات الهلال عامى ٢٠١١ - ٢٠١٢م

اسم الرواية	المؤلف	الشهر	السنة	رقم العدد
الأرملة السوداء	صبحى فحماوى	مايو	٢٠١١	٧٤٨
ما فهمتكم	د. مرعى مدكور	يونيه	٢٠١١	٧٤٩
الحب والزمن	سعيد سالم	يوليه	٢٠١١	٧٥٠
فى انتظار النور	سناء أبو شرار	أغسطس	٢٠١١	٧٥١
ذكريات منسية	حمدى البطران	سبتمبر	٢٠١١	٧٥٢
السنوات الرهيبة	جنكيز ضاغجى	أكتوبر	٢٠١١	٧٥٣
والنجوم أيضاً تموت	د. ليلى عنان	نوفمبر	٢٠١١	٧٥٤
الحجاج بن يوسف	جرجى زيدان	ديسمبر	٢٠١١	٧٥٥
حجر السرائر	نبيل سليمان	يناير	٢٠١٢	٧٥٦
مها تبتسم للملائكة	على ماهر عيد	فبراير	٢٠١٢	٧٥٧
عاشق تراب الأرض	أحمد الشيخ	مارس	٢٠١٢	٧٥٨
لا أحد يقفز فوق ظله	شعيب حليفى	أبريل	٢٠١٢	٧٥٩

هذه الرواية

اختفى الظل والباب، صار الخروج حلما مرة أخرى. شعر فهد بقلبه يرتجف، ما هذا؟ لا يستطيع أن يصف مشاعره. حاول أن يلتفت أو يسير، كان الزحام شديداً، بقى دون حركة ، لم يعد يرى المنصة ولا حنين.

سمع همس.

«إنه ضئيل جدا».

«ويخفى حكايته».

«لقد سألنى عن باب للخروج».

ضحكات

«باب ؟ أمر غريب».

التفت أحد الوافدين الجدد إليهم، كان يحمل لافتة كتب عليها: حرية، إنسانية، عدالة اجتماعية.

«من؟ من يبحث عن باب الخروج؟»

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
حلمى النمنم

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

المستشار الفنى
محمود الشيخ

مدير التحرير
هالة زكى

سكرتير التحرير
وجدان حامد

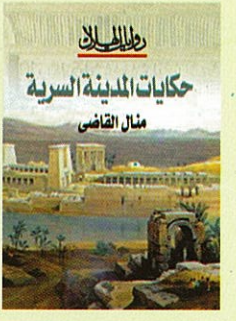

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدي ١١٥١١ ـ تلغرافيا: المصور ـ القاهرة ج. م. ع.
تلكس: Telex 92703 hilal u n
فاكس: FAX: 3625469

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٧٢جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٥ دولاراً - أوروبا وآسيا وأفريقيا ٤٠ دولاراً - أمريكا وكندا والهند٤٥ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الغلاف تصميم: محمود الشيخ

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

العدد ٧٦٠- مايو ٢٠١٢م - جمادآخر ١٤٣٣هـ

البريد الإليكترونى: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٦٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس ـ الكويت ١,٢٥٠فلس - السعودية ١٢ ريالا البحرين ١,٢ دينار- قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٣,٥ جنيه.